

المناخ والمجتمع

د. عبد الهادي البياض

كتاب المجلة العربية
220

المناخ والمجتمع

بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط
إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات

المؤلف
د. عبد الهادي البياض

العربية
220

المجلة العربية

رئيس التحرير
د. عبدالله بن نعمان الحاج

الرياض - طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) - شارع المنفلوطي
هاتف: 4778990 - 4779792 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

ح المجلة العربية، 1436هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البياض، عبدالهادي

المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال عصر الوسيط إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات./ عبدالهادي البياض.- الرياض، 1436هـ

108ص ؛ 21×14سم- (إصدارات المجلة العربية ؛ 220)

ردمك: 1-73-8138-603-978

1 - الأندلس- تاريخ إسلامي 2 - المغرب العربي- تاريخ إسلامي أ.العنوان ب.السلسلة

ديوي 953,0714 1435/2012

المحتويات

مقدمة

يكتسي موضوع (المناخ والمجتمع) من زاوية نظر المؤرخ أهمية بالغة لأنه تخطى مرحلة كان فيها البحث التاريخي أسير الكرونولوجيا السياسية والحروب المتناسلة والصراعات المذهبية، مقابل ذلك انفتح على إشارات بكر حاول من خلالها سبر أغوار التفاعل الحاصل بين المؤثرات المناخية والواقع التاريخي. ذلك أن مسعاي في التحليل سينصب على رصد تجليات التفاعل المذكور في الواقع المعيشي لشرائح مجتمع المغرب والأندلس إبان الحقبة الوسيطية.

لا يمكن إنكار الصعوبات التي واجهتني في تعقب الطقوس الاحتفالية ورصد الإفرازات الذهنية والسلوكية التي عبر عنها إنسان المجال المدروس تحت تأثير الاضطرابات الجوية بشكل خاص، بحيث يشكل التعتيم وندرة المادة المصدرية التي تهم الدراسة مباشرة من مظان التراث الإخباري، أكبر عائق يواجه إنتاج تحليل رصين لأنماط الثقافة والسلوك السائدين بالمغرب والأندلس إبان العصر الوسيط.

ويعزى هذا التعتيم في بعض جوانبه إلى تدني مستوى تدين شرائح عريضة من سواد المجتمع، ومن ثمة كان طمس أخبار الظواهر المنافية لقيم الدين كجزء من أساليب الوقاية والممانعة التربوية حفاظا على سلامة عقيدة رعايا العدوتين من نشاز البدع والمحدثات.

وعلى الرغم من هذا الصمت المطبق الذي يلف المادة العلمية في المصادر التراثية، وندرة الدراسات العربية القريبة من الموضوع، فقد حاولت تجاوز هذه المعيقات عبر لم شظايا النصوص المبعثرة في المصادر الدفينة، إلى

جانب الانفتاح على أجناس أدبية مختلفة لم تؤلف أصلا لغرض التاريخ وموضوعه.

وفي هذا المنحى وسعت دائرة القراءة والبحث فشملت كل المصادر اللاإرادية، منها كتب الهيئة والتنجيم والرصد، ومصنفات الفلاحة والطب، وكتب النوازل والبدع، وكتب الرحلات والأدب والحسبة والتصوف والأمثال والزجل وغيرها.... مما أسهم في إنارة جوانب معتمة من تاريخ التفاعل بين المناخ والمجتمع في الحقبة مدار الدراسة.

الفصل الأول

المسألة المناخية بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط

أولاً: مناخ المغرب

يتحكم الإطار الطبيعي في اقتصاد الأمم والشعوب، ويؤثر في تشكيل طبائعهم وألوانهم ويسهم في صياغة سلوكياتهم وعاداتهم بصرف النظر عن كونها إيجابية أو سلبية. ومن هذه الزاوية صحح ابن خلدون[1] ما ذهب إليه كثير من النسابين في تعليل ألوان البشر، ووجدها فرصة أبرز فيها أن سواد البشرة وبياضها خاضعين لطبيعة الفصول ومميزات الأقاليم المناخية.

كما تسهم تضاريس المغرب بنصيب وافر في تنوع المناخ، وفي هذا الصدد فقد حرم انتصاب (جبل درن- الأطلس الكبير- من جهة الغرب وتصاعدها المتكاثف من جانب القبلة)[2] المناطق الواقعة جنوبه من المؤثرات والكتل الهوائية الرطبة المنبعثة من المحيط بحيث لا تستفيد منها سوى السهول الساحلية.

أما من جهة الشرق والجنوب حيث تقل التساقطات وترتفع درجات الحرارة، فإن تكرار هذه المؤثرات يتسبب في صعوبة الاستقرار والعيش في هذه المناطق، جراء زحف الرمال وتصحر التربة التي غدت بمثابة (قفار ورمال لا تنبت زرعا ولا مرعى)[3].

(1) (وفي القول بنسبة السواد إلى حام (ابن نوح) غفلة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة في الجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر، ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم البرد المفرط بالشمال) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ - 1992م، ص 90. / أما الإدريسي فقال عن سجلماسة ونواحيها: (وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا ولذلك أهل هذا الإقليم (...) لشدة الحر واحتراق الشمس لهم كانت ألوانهم سودا وشعورهم مفلفلة). وصف إفريقيا والشمالية والصحراوية، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بريس، الجزائر، 1957م، ص 4.

(2) ابن خلدون، كتاب العبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ - 1992م، ج 6، ص 119.

(3) نفسه، ص 118.

وتتلقى المناطق الساحلية كميات مهمة من التساقطات، حيث تستقبل كتلا هوائية رطبة، مما صبغ هذه المناطق بخصائص المناخ المحيطي الرطب وهو ما دعاه ابن خلدون بـ(مزاج التلول)[1]. أما المناطق الصحراوية الجنوبية والشرقية فإن الجفاف يشكل أهم خصائصها، نظرا لبعدها عن الواجهات البحرية وقربها من الصحراء الإفريقية الكبرى، حيث تتلقى تأثيرات حارة وجافة تمثل بحق دعامة طبيعية لقساوة المناخ، ذلك أن (إفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات)[2]. وتدخل هذه المؤثرات الصحراوية الجافة ضمن سمات (مزاج الصحراء)[3].

فإذا اتجهت الكتل الهوائية الحارة نحو الوسط والشمال فإنها تحمل معها خصائص الجفاف، بحيث يضعف تأثيرها في المناطق المتاخمة للسواحل، لاسيما عندما تلامس المسطحات المائية مما يعدل من جفافها. ولهذا كان لرطوبة هواء البحر المحيط –الأطلنتي– والبحر الرومي –المتوسط– أثر في اعتدال مناخ المغرب (فتقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر (...) وسار الاعتدال بسبب رطوبة البحر)[4].

وهكذا غدا وسط البلاد منطقة استقبال المؤثرات المناخية، فإذا كان مصدر الكتل الهوائية من الشمال والغرب تكون مميزاتها رطبة مصحوبة في الغالب بتساقطات مطرية. أما إذا انبعثت جنوبية كانت كتلها حارة

(1) نفسه
(2) ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 54.
(3) كتاب العبر م س، ج 6، ص 118.
(4) المقدمة م س، ص 89.

جافة. ولهذا أكد ابن خلدون[1] أن مناخ المغرب يتأثر طورا (بمزاج التلول) وطورا آخر (بمزاج الصحراء). وأحيانا تسقط الأمطار العاصفية صيفا فتسهم إلى جانب عوامل أخرى في تفشي الأمراض والأوبئة[2].

هذه المميزات المناخية المغربية لم يحصل فيها سوى تغير نسبي، بدليل ما أورده الوزان[3] وغيره، بحيث (يبتدئ فصل الشتاء والبرد في كل بلاد البربر تقريبا بعد منتصف أكتوبر ويستمر في دجنبر ثم يشتد البرد في يناير (...) غير أن الجو يتقلب خمس أو ست مرات في اليوم). كما تحدث في فصلي الشتاء والربيع أحيانا عواصف مصحوبة بالبرد والصواعق والبرق[4]. وأحيانا أخرى (تسقط الصواعق في عدة أماكن من البلاد)[5]. وتكون بداية الصيف (في التاسع عشر من ماي وينتهي في السادس عشر من غشت وتكون الحرارة شديدة لاسيما في شهري يونيو ويوليوز)[6].

وعموما يمكن القول: إن مناخ المغرب يندرج ضمن خصائص المناخ المتوسطي المتميز بعدم انتظام التساقطات، وظهور فصلين: حار وجاف صيفا، ودافئ وممطر شتاء. تلك هي الخصائص المناخية التي سماها ابن خلدون[7] (مزاج المتوسط).

(1) كتاب العبر م س، ج 6، ص 118.
(2) ابن الخطيب، الوصول لحفظ الصحة في الفصول، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم (77)، ص 42 / ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم وتعليق الكتاني علي المنتصر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1402هـ / 1982م، ج2، ص 183.
(3) الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج 1، ص 62 / كربخال، إفريقيا، ترجمة، حجي، زنيبر، الأخضر، التوفيق، بن جلون، المعارف الجديدة، الرباط، 1404هـ – 1984م، ج1، ص 30.
(4) نفسه، (وصف) ص 65.
(5) كربخال، إفريقيا، م س، ج1، ص 30.
(6) الوزان، وصف إفريقيا، م س، ج 1، ص 63. / كربخال، إفريقيا، م س، ج1، ص 31.
(7) المقدمة، م س، ص 90.

ثانياً: جوانب من مميزات مناخ المغرب في العصر الوسيط

تتعدد النصوص التي تشير إلى تردد الجفاف بالمغرب حتى صار من مميزات المناخ المتوسطي وأضحى (آفة طبيعية وظاهرة بنيوية للبيئة المغربية)[1]. ويكفي أن نلقي نظرة على تجليات اضطرابات المناخ اعتمادا على أوصاف الإخباريين والرحالة والجغرافيين؛ من خلال رصد بعض النماذج لتأكيد العلاقة الناظمة في بعض الفترات الاستثنائية بين المناخ ومحن المجتمع المغربي في الحقبة مدار الدراسة.

ففي الجهة الجنوبية الصحراوية المعروفة بمناخها الحار، سنحاول رصد وضعية مدينتين مشهورتين بحسب خصائصهما المناخية وهما: (مراكش وسجلماسة). فمدينة مراكش كلما اشتدت حرارتها صيفا إلا و(كثر وخمها ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى)[2]. أما إذا أعقبت الأمطار العاصفية موجات الجفاف والقحط التي تضرب عادة هذا النطاق في فصل الصيف

(1) اميروكبي روبير، المناخ والماء العذب في غرب البحر الأبيض المتوسط، ضمن أي مستقبل لحوض البحر الأبيض المتوسط والاتحاد الأوروبي موضوع الدورة الأولى، لشبونة، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الدورات 1415 هـ / مايو 1995 م، ص 162.

(2) العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام، الرباط 1394 هـ - 1974 م، ج1، ص 63. / وفي مثل هذه الوضعية أصيب الشاعر المريني عبد العزيز الملزوزي بالحمى فدخل عليه الأمير عبد الواحد بن يعقوب المريني في رمضان عام 669 هـ / 1271 م، وقد وجد راحة من حماه، فقال له الأمير كيف أنت يا عبد العزيز من مرضك؟ وكيف رأيت مراكش، فقال:

مراكش فضل على كل بلدة

وما أبصرت لها من مشابه

وما هي إلى جنة قد تزخرفت

ولكنها حفت لنا بالمكاره

العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش، م س، ج1، ص 66 - 67.

فإن سكان مراكش يعانون أوضاعا كارثية وأمراضا وبائية، مثلما حدث في بعض السنين حين نزل المطر في شهري يوليوز وغشت ففسد الجو كثيرا، ونشأت عنه حمى حادة اشتدت على أكثر الناس ولم ينج منها إلا القليل[1].

وهذا ما تردد في مراكش وكان أقصى ما عاناه سكانها عام 635 هـ/1238م حيث ذكر ابن عذاري[2] في سياق التأريخ لمراسيم تجديد البيعة للخليفة الرشيد الموحدي، متحدثا عن وصول وفد إشبيلية إلى الحضرة (ووافقوا الصيف بمراكش ومزاجها الانحراف وهواؤها رديء، بكثرة الأمطار من الجدب الذي كان تقدم أعواما، فكثرت الرطوبة وحدث الوباء). الأمر نفسه لاحظه ابن الخطيب[3] عندما زار العاصمة مراكش مقررا أن (هواءها محكم في الجباه والجنوب، يحمى عليه بكثير الجنوب، وحمايتها كلفة بالجسوم). ولا غرو حينئذ أن توصف شدة الحرارة صيفا في

(1) الوزان، وصف إفريقيا، م س، ج1، ص 63 - 64.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1406 هـ - 1985 م، ص 345.

(3) ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، الرباط 1397 هـ - 1977 م، ص 77 / قال أبو القاسم محمد بن محمد بن أيوب بن نوح الغافقي من أهل بلنسية يهجو مراكش بسبب قساوة مناخها:

مراكش إن سألت عنها

فإنها في البلاد سار

هواؤها في الشتاء ثلج

وحرها في الصيف نار

كما انتقد قساوة مناخها أبو الحسن بن الإمام المرشاطي كاتب تميم بن يوسف بن تاشفين بقوله:

يا حضرة الملك ما أشهاك لي وطنا

لولا ضروب بلاء فيك محسوب

مثل هذه التقلبات المناخية بـ (قرن الزمان) [1].

وغير بعيد عن حضرة مراكش تمتد مدينة أغمات المشرفة على البحر بحيث لا يفصلها عنها سوى بضع مراحل[2]. ومع ذلك نعت بأنه بلد (وخيم الهواء وألوان أهله مصفرة)[3]. وهذا ما يدعو إلى إعادة النظر في رأي ابن الخطيب عندما أكد أن بلد أغمات (صحيح الهواء)[4] ومن ثم لابد من وصمه بالنسبية. أما في فصل الشتاء فكانت السفن الراسية بمراسيها تجد صعوبة في مغادرتها بسبب شدة الاضطرابات البحرية، بحيث (لا تخرج إلا بالرياح العاصفة في زمن الشتاء عند تكدر الهواء)[5].

وفي مدينة سجلماسة تبدو العلاقة واضحة بين مميزات المناخ الصحراوي الحار وما يترتب عنه من آثار طبيعية كالجفاف والزوابع الرملية. وفي هذا الصدد وصف صاحب الاستبصار[6] مناخ سجلماسة

ماء زعاق وجو كله كـدر

وأكله من باذنجان ابن معيوب

وابن معيوب هذا كان من خدام أبي العلاء ابن زهر، اتهم بأنه سم ابن باجة عدو ابن زهر في باذنجان

المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1408هـ - 1988م، ج4، ص 12 - 13. / العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش، م س، ج1، ص 228.

(1) الوزان، وصف إفريقيا، م س، ج1، ص 64.

(2) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص46. / العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش، م س، ج1، ص101.

(3) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1985م، ص 207. / نفسه، ج1، ص 100.

(4) ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ج2، ص 58.

(5) مؤلف مجهول، الاستبصار، م س، ص 207 / الروض المعطار، م س، ص 46. / العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل، م س، ج 1، ص 100 - 101

(6) مؤلف مجهول، م س، ص 201.

بأنه (مفرط الحر شديد القيظ). ولهذا وجه ابن خلدون[1] عناية من أراد الإقامة بين أهلها (أن يروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه)، لأن (ماء المطر قليل)[2] ونادر جدا، بشهادة ابن الخطيب[3]، مؤكدا أنه (معدود من الخطوب). ومن ثمة يمكن تصور حجم معاناة الكثير من سكان هذا المجال بسبب (غلبة الجدب عندهم)[4].

وبين الفينة والأخرى تتحرك في أرجائها عواصف زحف الرمال فتضيق الواحات والمساحات الخضراء ويتسع بذلك مجال التصحر، ذلك أن (الرمال تسفها الرياح وتنقلها من مكان إلى آخر)[5]. وفي إحدى زياراته العابرة لمجال سجلماسة عاين ابن الخطيب[6] خطورة الزوابع المتحركة فشبهها بـ(معركة غبار)، حيث تتسع عمليات التصحر (بحدوث عمليات التعرية والدفن بالكثبان الرملية المتحركة للأراضي الزراعية (...) ويترتب على ذلك تغير واضح في البيئات الطبيعية والمناخ)[7].

إن هذه الخصائص المناخية الصحراوية تزيد من عوامل تردد الجدب، والنموذج ساقه الإدريسي[8] من سجلماسة أيضا بقوله: (وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا)، كما أن جفافها يكون مصحوبا دائما (برياح عاتية تحمل

---

(1) ابن خلدون، كتاب العبر، م س، ج6، ص 216.

(2) مؤلف مجهول، الاستبصار، م س، ص 201.

(3) معيار الاختيار، م س، ص 82.

(4) مؤلف مجهول، الاستبصار، م س، ص 201

(5) الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية، م س، ص 4.

(6) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م س، ص 82.

(7) خلف الله إسماعيل، الجفاف والتصحر وأثرهما الاقتصادي والاجتماعي على السودان، إسهام ضمن الحروب والكوارث وأثرها على أوضاع الطفل العربي، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، 1409هـ / 1989م، ص 202.

(8) وصف إفريقيا الشمالية، م س، ص 4.

معها جبالا من الرمال)[1]. لذلك كانت (القوافل تفضل عبور الصحراء أيام الشتاء والخريف حتى تتلافى حرارة الصيف وعواصف الرمال)[2].

وعلى غرار المناطق الجنوبية، وصفت المناطق الشرقية للمغرب بقساوة مناخها ورياحها الشرقية المحملة بخصائص الجفاف ودواعي الأمراض، بحكم طابعها المداري وبعدها عن المؤثرات البحرية الرطبة. فتكتسب خصائص القارية ويظهر ذلك في فصل الشتاء، حين يكون (ريحه عاصف وبرده لا يصفه واصف)[3]على حد تعبير ابن الخطيب.

لا تسمح هذه المميزات المناخية إلا بأنشطة زراعية معيشية محدودة، في حين زاول معظم سكان المناطق الشرقية أنشطة رعوية على نطاق واسع[4]. ومما كان يزيد من حدة الوضع هبوب كتل هوائية شرقية جافة؛ تعرف في المغرب برياح الشركي[5]، التي تذكرها المصادر في القالب مقرونة بالقحط، حيث (تكون بالغة الضرر لاسيما في شهري مايو ويونيه؛ لأنها تفسد جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج، وكذلك الضباب يضر الحبوب كثيرا لاسيما إذا وقع في وقت الإزهار لأنه يستمر أحيانا النهار كله)[6]. وأحيانا أخرى تعقبها المجاعات والأوبئة خصوصا إذا واكب هبوبها ندرة التساقطات أو شدة الحرارة. أما إذا استغرق تأثيرها أكثر من الوقت اللازم لإنضاجها أذِنَ ذلك باستحكام الجفاف وتوابعه من المجاعات. وفي هذا

(1) افريقيا، م س، ج1، ص 50.
(2) القاسمي أحمد، موقع رحلة ابن بطوطة في المشاريع السياسية والاقتصادية للسلطان المريني أبي عنان، ضمن أعمال ندوة ابن بطوطة بطنجة 1993م، ص 157.
(3) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م س، ص 82.
(4) مثل قبائل بني مرين الظاعنة شرق المغرب.
(5) Gautier Emile Félix, le Sahara, Payot Paris, 1928, p. 22.
(6) الوزان يوسف، إفريقيا، م س، ج1، ص 65.

الصدد عصفت موجة جفاف حاد بالمغرب عام 687هـ/1288م مما عجل بضياع الموسم الزراعي وظهور شبح المجاعة حيث (كانت الريح الشرقية المتوالية والقحط الشديد وتوالى ذلك إلى آخر عام تسعين ولم ينزل مطر إلى شهر أبريل من سنة تسعين (690هـ))[1].

وباستثناء المناطق والمدن الساحلية المطلة على الواجهات البحرية المميزة بمناخها المعتدل[2]، فالقرى والمدن الداخلية تتأثر تارة (بمزاج التلول) وتارة أخرى (بمزاج الصحراء)[3]، وذلك بحسب مصدر تسرب الكتل الهوائية واتجاهها، حيث تكون محملة بخصائص الاعتدال أو بمميزات الجفاف، فضلا عن المؤثرات القارية التي تكثر كلما ابتعدنا عن الواجهات البحرية.

وبناء على ذلك سأقتصر على نموذجين للمناطق الداخلية لإبراز علاقة المناخ بالسكان: فمدينة مكناسة وأحوازها حظيت بثناء منقطع النظير من طرف الرحالة والجغرافيين بسبب ما تزخر به من شروط مناخية

(1) ابن أبي زرع، (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1420هـ / 1999م، ص 383. / وأورد الناصري أنه في سنة 689هـ / 1290م) كانت الريح الشرقية - المتوالية الهبوب، ونشأ عنها القحط الشديد واستمر ذلك إلى آخر سنة تسعين بعدها)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج3، ص 89.
(2) إن المناطق الشمالية المطلة على البحر المتوسط (مرتفعة محصورة من جانب الجنوب بالجبال مفتوحة للبحر تهب عليها منه ريح الشمال، فقد وافقت قول الأطباء في طيب الهواء والماء والاعتدال) الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط 2، 1403هـ - 1983م، ص 55 / وبالمثل فالمناطق والسهول المشرفة على الساحل الأطلنتي يسودها مناخ محيطي ذو مميزات رطبة وتستقبل كميات مهمة من التساقطات إلى درجة أنها تساهم في انجراف التربة. انظر معيار الاختيار، م س، ص 73، كما وصف ابن الخطيب سلا بأنها (مخصب الأمطار ومرعى القطار). مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق، أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958م، ص 66.
(3) ابن خلدون، كتاب العبر، م س، ج 6، ص 118.

ملائمة. فكانت محط إشادة ابن الخطيب[1] الذي فضلها على ما سواها من الحواضر السلطانية بقوله: (وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة الهواء). فكانت مكناسة دون منازع (مدينة المغرب الفلاحية) على حد تعبير أحد أعلامها[2]. ولا غرو فقد (فضلها الله ورعاها وأخرج منها ماءها ومرعاها)[3].

وحتى لا أسقط في مزالق نزعة الافتخار بمدن المولد والنشأة، لم تسلم مدينة مكناسة من بعض الآفات الناتجة عن الاضطرابات المناخية الدورية، ففي عام 722هـ/1322م تحولت إلى خراب نتيجة هبوب رياح عاصفية استغرقت يومين بليلتيهما (هدمت الديار وقلعت الأشجار ومنعت الأسفار

(1) فكان مناخ مكناسة مدعاة إلهام للأدباء والشعراء في إبراز مميزاتها ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة قال ابن جبون من أهلها ولله دره:

إن تفخر فاس بما في طيها
وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها
والأطيبان هواؤها والماء

وفيها قال ابن الخطيب:

بالحسن من مكناسة الزيتون
قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذي
يجري بها وسلامة المخزون

إلى أن قال:

حييت من بلد خصيب أرضه
مثوى أمان أو مناخ أمين

نفاضة الجراب، م س، ج2، ص 372. / المقري، النفح، م س، ج 6، ص 212 - 213.

(2) بوشيش القادري إبراهيم، تطور الفلاحة في مكناس من عصر المرابطين إلى أواخر العصر المريني، مجلة المناهل، عدد 38، السنة 15 جمادى الأولى 1410 هـ / 1989م، ص 207.

(3) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م س، ص 78.

وأقمرت من زيتون مكناسة شيئا كثيرا)[1].

وغير بعيد عن مكناسة تضاربت آراء الجغرافيين والرحالة بشأن مناخ مدينة فاس، ومما أورده ابن الخطيب في حقها، قوله: (إن حر هذه المدينة مذيب (...) ومسالكها وعرة، وظهائرها مستمرة وعفنها هائل)[2]. بحيث إذا اشتد تهاطل الأمطار يكثر وحلها[3]. (كما يرتفع منسوب مياه أنهارها في فصل الشتاء، وهذا ما أكده صاحب معيار الاختيار[4] من خلال ما عاينه بفاس من (عياث الميازب أوقات الأمطار). كما وصف مناخها تارة بأنه صحيح[5]، وتارة أخرى بأنه معتدل[6]. ومع ذلك فالنصوص تشهد بحجم الدمار الذي تسببت فيه المؤثرات المناخية بفاس جراء الأمطار العاصفية وفيضانات الأودية، بحيث لا تجد أبلغ من صور هذا التحول المناخي المفاجئ الذي خضعت له مدينة فاس عام 725هـ/1325م من صاحب روض القرطاس[7] حين قال: (أتى سيل بوادي فاس أول الليل منها لم يعهد قبله مثله).

هذه المؤثرات المناخية القصوى التي عرفتها مدينة فاس أثرت في سلوكات سكانها وتصرفاتهم فلاحظ ذلك ابن خلدون[8] في عصره، مؤكدا أنه لما (كانت فاس من بلاد المغرب وبالعكس منها في التوغل في التلول الباردة

(1) ابن أبي زرع، روض القرطاس، م س، ص 545.
(2) ابن الخطيب، معيار الاختيار، م س، ص 80.
(3) الوزان، وصف إفريقيا، م س، ج1، ص 214.
(4) ابن الخطيب، م س، ص 81.
(5) النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، الرباط، 1984م، ص 2.
(6) الإدريسي، وصف إفريقيا الصحراوية، م س، ص 51.
(7) ابن أبي زرع، م س، ص 545.
(8) ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 93.

كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب).

من حصاد ما سبق يلاحظ طغيان الجفاف الذي استمرت وتيرته إلى عصرنا هذا، ومن ثم فقد أقرت الدراسات الحديثة بدورها (أن الألف سنة الماضية تؤكد أن الجفاف كآفة طبيعية هو ظاهرة وفعل بنيوي للبيئة المغربية، وليس فقط قدر تاريخي)[1].

كما يمكن تفسير هذه الظاهرة المناخية انطلاقا من نشاط الدورة الهوائية الأوروبية الممطرة التي تسود في العروض المعتدلة هذه الخلية، إضافة إلى حركة التيار النفاث هما المتحكمان في تطور حالة الطقس والمناخ في المغرب، فاستقرار هذه الخلية ضد الإعصارية فوق أجواء البلاد يحول دون دخول الاضطرابات الممطرة مما يجعلها عرضة لليبس والجفاف)[2].

(1) امبروكيني، المناخ والماء العذب في غرب البحر الأبيض المتوسط، ضمن أي مستقبل لحوض البحر الأبيض المتوسط والاتحاد الأوروبي موضوع الدورة الأولى، لشبونة، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الدورات 1415 هـ / مايو 1995م، ص 162.

(2) بلمو عبد العزيز، الجفاف في المغرب وعلاقته بالتقلبات المناخية المعاصرة وبالأنظمة الأطلسية، مجلة المنعم، عدد 2، السنة 2، يونيو 1996، ص 25 – 26. / كما أن (هناك ظاهرتان جويتان تزعجان الأنواء المغربية المتعلقة بالجفاف وهما (النينيو) و(البارادي) إن أزمات (النينيو) وهو مظهر حقيقي لارتفاع حرارة المحيط تصبح كونية وتشكل كارثة حينما تكون الظاهرة حادة، ويطول دورها التكرر، فلمحنا حيث تتدخل تارة بكثير من الجفاف كل إحدى عشرة سنة فيما المدفع الشمسية وتارة أخرى تتواطأ معها. وبالنسبة للتذبذب (البارادي) فوق شمال المحيط الأطلسي فإنه يظهر في شكل تفاعل قوي مع (النينيو) أكثر من أية كظاهرة وهو يؤثر على أوروبا الغربية وعلى إفريقيا الشمالية) امبروكيني، المناخ والماء، م س، ص 162 – 163.

ثالثاً: مناخ الأندلس

اهتم الجغرافيون برصد المميزات الطبيعية لشبه جزيرة الأندلس، فلاحظوا أنها (مثلثة الشكل)[1]، وبتعبير الرازي[2] فهي (معتمدة على ثلاثة أركان) تتسع باتجاه الغرب (وتضيق في ناحية المشرق)[3]. هذا الموقع (الآخذ من الغرب إلى الشرق على طوله)[4] محاط من الناحية الجنوبية الشرقية (بالبحر الشامي – المتوسط- وبالبحر المظلم المحيط -الأطلنتي- من الجهة الغربية)[5].

وعلى هذا الأساس تصنف (معظم الأندلس في الإقليم الخامس وجانب منها في الرابع)[6]. وبناء عليه يمكن تقسيم الأندلس إلى ثلاث نطاقات مناخية، فالجنوب والشرق يتلقيان رياحا حارة منبعثة من صحراء إفريقيا، غير أن حرارتها تعتدل عند ملامستها للمسطحات المائية للبحر المتوسط، فتكتسب المناطق المحادية لها خصائص المناخ المتوسطي الذي يتميز بقلة وعدم انتظام تساقطاته[7].

(1) المقري، نفح الطيب، م س، ج 1، ص 128.

(2) RAZI. La description de l'Espagne. Traduit par E. L. Provencal. Revista al – – Andalus. Vol XVIII. 1953. p. 60

(3) الإدريسي، وصف إفريقيا، م س، ص 105 / الحميري، الروض المعطار، م س، ص 2.

(4) ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 56.

(5) البكري، المسالك والممالك – تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، 1992م، ج 2، ص 843.

(6) الحميري، الروض المعطار، م س، ص 32. / ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1400هـ – 1980م، ص 21. / ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 70 – 71 – 77 / المقري، نفح الطيب، م س، ج 1، ص 129. / ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1417 هـ 1997 م، ج 2، ص 83. / قال ابن الشباط (معظم الأندلس في الإقليم الخامس وطائفة منها في الإقليم الرابع كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية). كتاب صلة السمط وسمة المرط، قطعة في وصف الأندلس وصقلية نشره العبادي أحمد مختار تحت عنوان (وصف الأندلس) مدريد، 1967 – 1968م، ص 101

(7) المقري، نفح الطيب، م س، ج 1، ص 132. / عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب

كمـا تستفيد المناطـق الشمالية الغربية لشبه جزيـرة الأندلس المنفتحة على الساحل الأطلنتي من هبوب رياح محيطية رطبة محملة بالأمطار، حيث يسـود بها المناخ المحيطي وهـو (مناخ غرب أوروبـا)[1]. كما تخضع هضبة الميزيتا الممتدة وسط الأندلس إلى تأثيرات المناخ القاري الذي يزداد تأثيره كلمـا ابتعدنا عن السواحل[2]. كمـا أن انتصاب السلاسل حولها يحول بينها وبين تسرب الكتل الهوائية نحو الداخـل. أما المناطق المرتفعـة فيسود بها المناخ الجبلي ذو الخصائص الباردة[3].

إن هذا التقسـيم الثلاثي لا يتعارض مع التقسيم الذي اعتمده جغرافيو الأندلس القائم علـى أساس اعتبار عوامل الرياح ومصادر هبوبها ومناطق اتجاهها؛ ومـا يترتب عنها من أمطار أو جفاف معايير قسموا على أساسها الأندلـس إلى نطاقين مناخيين وهما: الأندلس الغربـي والشرقي (فالغربي يمطـر بالرياح الغربية وبها صلاحـه (...)، وإذا استحكمت الريح الغربية كثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي)[4]. وهي الرياح المحيطية الرطبة التي تهب عادة من غرب الأندلس وتكون في الغالب محملة بالأمطار.

الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري، دار الشروق، بيروت، ط1، 1403هـ / 1983م، ص 52 / كمال السيد، تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر المرابطين، مركز الإسكندرية للكتاب، دون تاريخ، ص 88.

(1) Provençal (E.Levi) ; Histoire de l'Espagne Musulmane. Maisonneuve et larose. Paris. 1999. T3. pp 260 – 261 – 262 / كمال السيد، تاريخ الأندلس، م س، ص 88.

(2) Drain (Michel). La géographie de la péninsule Ibérique. Que Sais – Je ? P.U.F.. Paris. 1968. p.56 – 69

(3) المقري، النفح، م س، ج1، ص 140. / المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1411هـ – 1991م، ص 236.

(4) (ويبتدأ هذا الحوز من ناحية الشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعا إلى حوز أفريطة المساور لطليطلة مائلا إلى الغرب ومجاورا البحر المتوسط) المقدسة، م س، ص 70 – 71 / المقري، النفح، م س، ج1، ص 131 – 132.

أمـا بالنسبة للأندلس الشرقـي فإنه (يمطر بالريـاح الشرقية ويصلح عليهـا لأنها حارة وجافة، أما إذا استحكمت الريـح الشرقية مطر الأندلس الشرقـي وقحط الغربي)[1]. وبالتالي فإن مركزية الرياح وكمية التساقطات كانتا من بين المعايير الأساسية في تقسيم الأندلس من الناحية المناخية إلى (جزأين لاختلافهما في حال أمطارهما)[2].

إذا كان المنـاخ المتوسطـي هـو الطابـع المميـز للأندلس، بحيـث يسود (المناطـق الجنوبيـة والجنوبية الغربيـة الجفاف بوجه عـام)[3]، فإن رصد علاقـة الموقـع والتضاريـس والكتـل الهوائيـة بالاضطرابـات الجوية كفيل بتوضيح أثر المناخ في حالاته الاستثنائية على سكان الأندلس.

إن موقع الأندلس المنفتح على واجهات بحرية جعلها تحت (ضغط هوائي مرتفع في الشتاء، فتهب الرياح الغربية محملة برطوبة المحيط الأطلسي)[4]، وهـذا لا يعنـي أنها تتلقـى كميات قـارة وكافية من التساقطـات، بحيث قد تسقـط في فترات متقطعـة وبشكل مفاجئ وغزير أحيانـا[5]؛ مما يؤدي إلى حدوث اضطرابات مناخية مباغتة كما تدل على ذلك أمثال الفلاحين[6].

---

(1) وحد الأندلس الشرقي (من جبل البشكنس هابطا مع وادي إبرة إلى بلد شنتمرية ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط) نفسه.

(2) المقري، نفح الطيب، م س، ج1، ص 132.

(3) نفسه، ج2، ص 461 / كمال السيد، تاريخ الأندلس الاقتصادي، م س، ص 89. / عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، م س، ص 53.

(4) المقري، نفح الطيب، م س، ج1، ص 132. / عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، م س، ص 53.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، 1983م، ج2، ص 166 / ابن بصال، كتاب الفلاحة، تحقيق خوسي مارية مياكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان، 1955م، ص 56 – 57.

Claudio Sanchez Albornoz ;l Espagne musulmane. traduction Claude Farragi. alu / pubbud. 1989. p ;289

(6) يقول المثل: (الرياح مارس والمواليع أبريل) الزجالي، ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام

رابعاً: جوانب من خصائص مناخ الأندلس في العصر الوسيط

تصنف التساقطات المطرية ضمن أهم الموارد التي تغذي العيون والأنهار والآبار، غير أن تهاطلها الشديد في موسمي الخريف والشتاء كان يؤدي إلى حدوث فيضانات مهولة تسهم فيها طبيعة الأودية فيرتفع منسوب صبيبها، ولاسيما في الأحواض النهرية الكبرى[1]. كما أن تعقد تضاريس سطح الأندلس أسهم في الرفع منسوب السيول التي أضحت نغمة يتردد صداها في مصادر الفترة، بحيث لا تجد إلا عبارات من قبيل (حملت الأرض سيلا)[2]. و(كان السيل العظيم الجارف)[3]. و(كان السيل الشنيع بوادي إشبيلة)[4]. و(هذا السيل تقدمته سيول كثيرة)[5]. وكذلك (السيل العظيم الجارف المربي على كل سيل)[6]. كما تزخر كتب الجغرافيا بنماذج أخرى من هذا الصنف، فقد ذكر ابن عذاري[7] أن فيضان (وادي تاجة صار عرضه ثلاثين ميلا).

(أمثال العوام في الأندلس) - تح محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، فاس، 1971م، ق2، مثل رقم 114، ص 30.

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط) - تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد - دار النشر المغربية - الدار البيضاء - د.ت - ج22، ص 91. / المقري، نفح الطيب، م س، ج1، ص 480.

(2) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1383هـ 1964م، ص 500.

(3) الحميري، الروض المعطار، م س، ص 59.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ق، م، م س، ص 239.

(5) نفسه.

(6) الحميري، الروض المعطار، م س، ص 21.

(7) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 1983م، ج2، ص 89.

وكان الأندلسيون يتخوفون من مياه التساقطات الفجائية التي غالبا ما أدت إلى (مد نهر قرطبة مدا طاميا)[1]. بناء على ذلك سجلت المصادر التزيف الديموغرافي للسيول المهولة التي استغرق بعضها ثلاثة أيام، وناهز بعضها الآخر الشهر[2]. ومن ثمة صارت الفيضانات والقحوط هاجسا لدى عوام الناس وخواصهم حفظتها ذاكراتهم وروجت لها أمثالهم الشعبية[3].

إن السيول المترددة والقحوط الدورية التي تعود عليها سكان الأندلس تدعو كل باحث إلى ضرورة مراجعة الصورة التي رسمتها معظم المصادر الأندلسية حول مناخ شبه جزيرة الأندلس، منها على سبيل المثال ما ذكره البكري[4] من أنها (شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها). وبالمثل يمكن التحفظ بشأن ما ذهب إليه الرازي لما نعت مناخها بأنه (معتدل الهواء والجو النسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال)[5]. أما ابن حزم فقد أورد في رسالته التي وضعها

(1) ابن حيان أبو مروان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الثقافة، بيروت 1965م، ص 210.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، م س، ص 95 - 102 / ابن عذاري، البيان المغرب، ق م، م س، ص 239.

(3) قالت العامة: (إما تموت بالعطش وإما تمشي في السيل) (ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام (أمثال العوام في الأندلس)، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، فاس، 1971م، ق1 ص 249 / ومن العامة أنشد يوسف بن عمر الشاعر فقال:

لله حمص أيما بلدة
لو أننا نأمن غباتها
طاف بها والريح روح له
فابتلع الأرض وسكانها

ابن عذاري، البيان المغرب، ق م، م س، ص 239.

(4) البكري، المسالك والممالك، م س، ج1، ص 895 / ابن الشباط، كتاب صلة السمط، م س، ص 101.

(5) المقري، المقري، النفح، م س، ج1، ص 129 - 130 /

في وصف الأندلس ما ينم عن مبالغة واضحة اقتضتها نزعة الافتخار ببلد النشأة والتكوين، فقال: (أرضها شامية في طيبها، تهامية في اعتدالها واستوائها (...) عدنية في منابع سواحلها)[1]، بينما أسهب الرازي في تعداد مناقبها الطبيعية مؤكدا على كونها (معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال)[2].

هذه الأوصاف توحي بانتظام تساقطات الأندلس واستقرار حرارتها الشيء الذي لا يعضده الواقع التاريخي، ولا تسنده النصوص التي تعكس بشكل واضح معاناة أهلها. فغالبا ما يخرج مناخها عن حد الاعتدال فتحدث الآفات والجوائح ويزيد قيظها زيادة منكرة أحيانا. تجلى ذلك في موجات القحط والجفاف التي تذكيها الرياح الحارة المنبعثة من الجنوب حيث (تنتقل مراكز الرياح شمالا مع حركة الشمس الظاهرية فتسود المنطقة الرياح القبلية الجافة فتجعل الصيف جافا حارا)[3].

هذه المؤثرات المناخية كسرت حاجز الاعتدال الذي رسمه الرحالة والجغرافيون، فتحكمت فيه النزعة الافتخارية المبنية على الوجدان وخيال شعراء وأدباء الطبيعة[4]، مما كدر صفو الحقيقة التاريخية التي

La description. op.cit. p. 60

(1) الغرناطي أبو حامد، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط1، 1413 هـ - 1993م، ص 72.

(2) المقري، النفح، م س، ج1، ص 140.

(3) عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، م س، ص 53.

(4) يبدو هذا واضحا في جواب أبي عمران موسى بن سعيد على أبي يحيى صاحب سبتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن عندما طلب منه التوجه إلى مراكش فقال: (وأما ما ذكره سيدي من التخيير بين ترك الأندلس وبين الوصول إلى حضرة مراكش، فكفى الفهم العالي من الإشارة قول القائل: العز محمود وملتمس، وألذه ما نيل في الوطن

ميزت طبيعة الأندلس، بحيث تكفي الإشارة إلى بعض الشواهد التاريخية لتبديد مسلمة اعتدال مناخ الأندلس؛ وترديها مسألة نسبية على الأقل. فغرناطة التي يفضلها الساسة والشعراء وصفت بأنها (مكشوفة للهواء من جهة الشمال)[1]، وهذا لا يعني أنها معتدلة تماما بقدر ما هي (قريبة من الاعتدال)[2]، ومن ثم لم يبالغ ابن الخطيب[3] عندما قال بأن (مناخها لا يذم) علما بأنها تتعرض أحيانا للجفاف، ولذلك وصفت بأنها (متماسكة في الجدوب ومغلة بالمدخرات)[4]. كما يطبعها في الشتاء برد جاف أقسم على قساوته ابن الخطيب[5] بقوله (لكنها والله بردها يطفئ حر الحياة ويمنع الشفاه عن رد التحيات). وبالمثل اشتهرت مدينة وادي آش بأنها (ذات برد (...) وزمهرير تجمد له المياه في شهر ناجر)[6].

وبعد هذا كيف أفارق الأندلس وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء (...) وعذوبة الماء وكثافة الأفياء.

في الأرض لا ورد لديها منكر ولا ظل منحسر ولا روض مجدب)

المقري، نفح الطيب، م س، ج1، ص 181 - 182 - 183. وفي هذا السياق نظم ابن خفاجة قائلا:

إن للجنة بالأندلس

مجتلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب

ودجى ليلتها من لعس

وإذا ما هبت ريح الصبا

صحت واشوقي إلى أندلس

نفسه، ج1، ص 170.

(1) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ - 1997م، ج2، ص 83.

(2) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، م س، ص 22.

(3) نفسه، مشاهدات م س، ص 34.

(4) نفسه

(5) نفسه، معيار الاختيار، م س، ص 63.

(6) أي شهور الصيف يكثر فيها العطش، معيار الاختيار، م س، ص 62.

وكثيرا ما أدت القحوط إلى ندرة الماء الصالح للشرب، ففي شرق غرناطة بلدة بيرة المطلة على البحر الأبيض المتوسط جفاف مستحكم ولذلك نعتت بأنها (قليلة المطر (...) معللة بالماء المجلوب)[1]. كما وصفت طبيعة المرية بأن (صفحة جوها في المحول صقيلة وسماؤها بخيلة، وبروقها لا تصدق منها مخيلة)[2].

وبناء على ذلك أضحت مخلفات الجفاف والسيول مرجعا اتخذه العوام مناسبات للتأريخ والتقويم[3]، جراء الخسائر المادية والبشرية التي نتجت عنها، ولهذا عبر ابن عذاري[4] عن ذلك قائلا: (تناهى القحط في بلاد الأندلس (...) حتى أيقن الناس بالهلاك). وخير من وصف القحوط المترددة في سرقسطة وصور تأثيراتها أبو عمر ابن الباجي الذي عزى ذلك إلى ما (كان من امساك السقيا، وتوقف الحياة ما ريع به الأمن واستطير به الساكن، ورجفت الأكباد فزعا، وذهلت الألباب جزعا، وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء درها، واكتست الرياض غبرة بعد خضرة ولبست شحوبا بعد نضرة)[5].

بالرغم مما عرف عن الأندلسيين بأنهم (نبطيون في استنباطهم المياه،

(1) معيار الاختيار، م س، ص 58.
(2) نفسه، ص 57.
(3) سنة لم أطن ابن عذاري، البيان المغرب، م س، ج 3، ص 161. / سنة سحق الحالقة ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1990م، ص 197. / وسنة السفينة، الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بيروت، 1401هـ / 1981م، ج2، ص 102.
(4) ابن عذاري، البيان المغرب، م س، ج 4، ص 39.
(5) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1 1399هـ / 1979م، ق 2، مجلد 1، ص 196 – 197.

ومعاناتهم للفراسة وتركيب الشجر والفلاحة)[1]، فإن موثقي العقود رفضوا اشتراط النقد في كراء أراضي الأندلس الزراعية بحجة أنها (غير مأمونة لتردد القحوط فيها)[2]. ومما يدعم هذا التخريج أن ظاهرة الجفاف استفزت الزجالين فأنتجوا مادة ذات صلة وثيقة بمحن المستضعفين، وخير من نقل ذلك من واقعهم المعيش الزجال الشهير ابن قزمان[3].

من خلال ما سبق يتبين أن المميزات المناخية للمغرب والأندلس أسهمت بنصيب وافر في رسم المجال الجغرافي، وعزل المناطق الأكثر تأثرا بالآفات والجوائح، فكانت مساحات السهول والأحواض والواحات؛ التي ارتبط بها استقرار الإنسان وأنشطته عبارة عن مجالات ضيقة لا تلبي حاجياته الاستهلاكية، مما شكل دعامات مساعدة على استفحال معاناة شرائح عريضة من سكان العدوتين.

(1) الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1413هـ – 1993م، ص 72 – 73.
(2) ابن مغيث الطليطلي، المقنع في علم الشروط، تقديم وتحقيق فرانسيسكو خابيير أغيري شادابا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1994م، ص 235.
(3) ومما نظمه في كوارث الجفاف والغلاء قوله:

الصحو والشمس يغلي
والسما الزرق مزجج
وربيع بلاء مثقال
لئن أردت أنا نروح
الهوى أنسه
لا ريحا غربي ولا نو
لو وقع خاتمك في البير
نكرا من كثرة الصحو

أبو بكر عبد الملك، ديوان ابن قزمان (إصابة الأغراض في ذكر الأعراض)، تحقيق وتصدير فيديريكو كورينتي، تقديم محمود علي مكي، نشر المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية، القاهرة، 1414هـ / 1995م، ص 438.

الفصل الثاني

المناخ والذهنيات
بالمغرب والأندلس خلال العصر
الوسيط

كانت الممارسات المرتبطة بالمعتقدات الخرافية تسبق أو تعقب بعض الفترات المناخية الحرجة في السنة زعما أن الطقوس المصاحبة لها تفيد في اتقاء الآفات المضرة بالمردود الفلاحي السنوي. هذه الذهنية كانت منتشرة في البوادي، ولم تعمل المؤثرات المناخية الصعبة سوى على ترسيخها وإعلائها بشكل واسع وخاصة في تزامن مع بداية أفول نجم العصبيات السائدة سواء في المغرب أو الأندلس إبان الحقبة الوسيطية. مقابل ذلك كانت درجة اليأس قد بلغت مداها لدى شرائح العوام الذين عجزوا عن إيجاد بدائل واقعية لخطر الآفات المناخية الدورية. فتشعبت مسالك الخرافة في أوساطهم مما ساعدهم على الهروب من مواجهة أزمات الواقع المعاش.

أولاً: العواصف والذهنيات

إن عجز عوام المغرب والأندلس في العصر الوسيط عن إدراك العلاقات السببية المؤثرة في الطقس والمناخ فسح المجال لتناسل تمثلات متنوعة، حيث ارتبطت الرياح والعواصف العاتية في المخيال الديني للعوام بعلامات الساعة والبعث متخذة صورا شتى لألوان العذاب والعقاب التي استهدفت الأقوام الغابرة. كما أثبت الواقع التاريخي للمدونتين أن الأزمات الاقتصادية وحالات البؤس الاجتماعي والنفسي التي تزامنت أو أعقبت العواصف العاتية أسهمت بنصيب وافر في توفير شروط القابلية لبروز ذهنيات خرافية. ساعد على ذلك تواضع نسبة الوعي نتيجة ضعف سياسة التعليم وعدم تطعيم المناهج بمواد التفتح الفكري. ومما زاد من تكريس هذه الذهنية فشل محاولات الإنسان المتكررة في تحقيق أمنه الغذائي والصحي واستقراره النفسي والاجتماعي في المجال المعني بالدراسة.

كما أسهمت أجهزة المخزن في تغذية العقلية الخرافية والتنجيمية، من خلال تقريب المتنجمين حرصا منهم على معرفة أسرار الغيب، وكشف الطالع، وقراءة القرانات، بحيث قلما كان يخلو مجلس أمير أو خليفة من منجم أو زاجر، أو راصد يزعم الإخبار بسعد أو نحس القابل من الأيام. هذه العوامل وغيرها كانت وراء تشكيل ذهنيات مشبعة بمعتقدات خرافية في أوساط الفئات الدنيا أكثر من غيرها. فكانت تصدق كل إشاعة دون تمحيص، بحيث كان يكفي بالنسبة لهذه الشريحة أن تصدر عن الكهان والعرافين والمتنجمين الذين انتدبوا أنفسهم كبديل عن مؤسسة العلماء بادعاء القدرة على الإخبار بالأمور المستقبلية، وخاصة منها أنباء المؤثرات المناخية القصوى التي شكلت عقبة كأداء في وجه استقرار الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

وفي هذا المنحى أحدثت خرافات شبيهة بالأساطير التي ترجع إلى الزمن البدائي هلعا في شرائح المستضعفين المحرومين بما أذاعه المتنجمون من وشايات مرعبة حول فناء العالم سنة 582هـ/1186م. والملفت للانتباه أن المسلمين والمسيحيين ماج بعضهم في بعض بحثا عن منافذ للخلاص. ذلك أن كل إنذار من هذا النوع بصرف النظر عن عدم صحته كان ينذر في أذهانهم بالفناء الذي إذا ما تحقق سيتخذ لا محالة صورة من صور الريح الصرصر العاتي. وهذا ما أكده أحد المؤرخين[1] بقوله: (أجمع المتنجمون في هذا العام (582هـ) في جميع البلاد على خراب العالم في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح، وخوفوا بذلك الأعاجم والروم فشرعوا في حفر مغارات ونقلوا إليها الماء والزاد وتهيأوا، فلما كانت

(1) العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة: نشر مكتبة القدسي، القاهرة، 1350هـ، ج 4 ص 273.

الليلة التي عينها المتجمون لمثل ريح عاد ونحن جلوس (...) والشموع توقد فلا تتحرك ولم نر ليلة مثل ركودها).

يكشف هذا النص غياب عقلية نقدية فاحصة للأخبار، وممحصة للزائف فيها من المعقول، فضلا عن انعدام أي تبرير فيها أو تعليل يستند إلى أسس علمية منطقية، فكانت النتيجة أن بعثت هذه الوشاية التنجيمية الخرافية الذعر بين أوساط العوام ممن جزم بتصديقها، فسيطر على وجدانهم الخوف من المصير المجهول واتجهوا إلى الاحتماء بمغارات طلبا للنجاة وحرصا على البقاء مما اعتقدوه فناء مدمرا.

كما أن حدوث بعض التقلبات المناخية القوية في تأثيراتها ومضاعفاتها الصعبة كانت باعثا على تسرب بعض الأساطير والخرافات إلى المخيال الجمعي لعوام الأندلس.

وفي هذا الصدد شاع أن الأندلس محروسة من الآفات بسبب ما في صنم قادس من الحدثان، حيث يبدو من سياق منطوق النص أن الحميري[1] تقبل الفكرة من خلال عدم نقده لها أو تعليقه على مضمونها الخرافي على الأقل، فقال: (إن صنم قادس موضوع على بلاد الأندلس، فجعل رأسه لطليطلة، وصدره لقرطبة، وكذلك أعضاؤه قسمها –بعض المؤلفين– عضوا عضوا على بلاد الأندلس، فمتى أصاب عضوا من هذه الأعضاء آفة حلت بذلك القطر الذي من قسمته الآفة). فكان حري بالمؤلف أن يتساءل على الأقل كيف لصنم قادس أن يحمي الأندلس من الاضطرابات المناخية دون أن تكون له القدرة على درئها عن أعضائه أولا، قبل انتقالها إلى حواضر شبه الجزيرة الأندلسية؟!. الشيء الذي يعكس أزمة ضمير النخب الواعية من أهل القلم.

(1) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، م س، ص 449.

ولا غرابة بعد ذلك أن اعتقد العوام في كون الصنم المنتصب يحجز عنهم ويقيهم شر العواصف، و(يمنع هبوب الرياح فيما جاوره من البحر المحيط إلى أن هدمه عيسى بن ميمون في ثورته سنة أربعين وخمسمائة)[1].

كما شاع تعليل حدوث المؤثرات المناخية بتأثير الطلاسم التي خربها الإنسان، إلى جانب تغلغل الممارسات الخرافية التنجيمية التي حادت عن علم الفلك لإضفاء هالة قدسية على عناصر الخرافة إمعانا في إرهاب العوام وحملهم على الاستسلام لطقوس الخرافة دون تفكير أو معارضة، سعيا من المشعوذين والكهنة إلى تعطيل حاستي الشك والنقد للقضاء على إرهاصات ظهور الوعي في أوساطهم مهما كان ذلك جنينيا.

إن تركيز المتجمين على عناصر المناخ في حدوث الاضطرابات والفناء بالطوفان، تركيز مقصود حتى يؤدي دوره، وذلك اعتمادا على توظيف المسبقات والتمثلات الدينية سعيا إلى محاكاة المقدس في تطهير الأرض من الدنس.

ومما يصدق حضور هذا التمثل في ذهنيات عوام المغرب ما أورده التجاني[2] واصفا شدة العواصف التي اعترضته في رحلته من قابس إلى المغرب الأقصى بقوله: (فاشتد عصف الريح حتى أيسنا من الحياة بابتعاد

(1) عيسى بن ميمون من رؤساء البحر في دولة المرابطين قام بثورة عند موت تاشفين في قادس وأعلن استقلاله فيها ثم خضع للموحدين. الاستقصا، م س، ج 2 ص 206. / الحميري، الروض المعطار، م س، هامش رقم 3 من تعليق إحسان عباس، ص 449 / وكان اعتقاد العامة جازما بدوره في حراسة الأندلس من غارات النصارى وفي هذا الصدد نقل الحميري ما يفيد هذا الاعتقاد بقوله: إذا هدم صنم قادس استولى النصارى على بلاد الأندلس فنظروا فإذا الوقت الذي هدمه أبو الحسن علي بن عيسى بن ميمون فيه دخل النصارى قرطبة وملكوها. نفسه، م س، ص 449.

(2) رحلة التجاني، تقديم وتحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب ليبيا –تونس، 1981م، ص 173.

واستعذنا الله من فتنة عاد، وقصفت الريح في ذلك اليوم من البساتين التي تكتنفنا نحو عشرين نخلة فانجعفت في الأرض ولم يتأذ أحد من الناس).

ومن تجليات ذهنيات التعليل الخرافي للمؤثرات المناخية بالأندلس شيوع معتقدات لا تستند إلى أصول الإسلام ولا إلى مقاصده، بل على العكس من ذلك تكشف في طيات ترانيمها ضعف الوعي الديني، وانحسار دائرة التأهيل العلمي بسبب انقباض العلماء، وانسحابهم من التأثير في واقع الناس. فشكلت بعض الاضطرابات الجوية فرصة لظهور نتوءات الذهنية الخرافية في تعليل أسبابها وربطها بتأثير الطلاسم، الشيء الذي يكشف عن وحدة الظاهرة في العدوتين من خلال موضوع التعليل ونمط التفكير والتأويل الذي عزاها بسهولة إلى دور الطلسم الذي انتزعه الخليفة المنصور الموحدي سنة 685هـ/1286م، وذلك لما نزل بقرطبة (ومشى أثناء ذلك للزهراء بنية الاعتبار بآثار القرون الذاهبة والأمم السالفة فأمر بقلع الصورة التي كانت على بابها، وكان من الاتفاق أن ذهبت ريح عاصف بأصيل ذلك اليوم أثرت في خباء السافة بعض التأثير وقطعت في طنبه كالقطع اليسير، فأرجف جهال من عوام قرطبة أن ذلك بسبب صورة الزهراء، وأنها كانت طلسما لما ارتدعها من الأشياء)[1]. ومن ثمة يعكس هذا التأويل الخرافي أثر المعتقدات الشعبية التي أبداها العوام أمام عجزهم عن إدراك خفايا التفاعلات المناخية، وجعلوا وراء كل عاصفة عالم معقد من الأرواح والطلاسم، معتقدين أنها موكلة بحراسة مكان ما، ذلك أنه كلما نازعها الإنسان وظيفتها تحولت إلى قوة هجومية انتقامية تتشكل في صورة رياح عاصفة مدمرة كتلك التي ألمت بخباء سافة الخليفة المنصور الموحدي.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ق م، م س، ص: 205.

وفي السياق ذاته اعتقد أهالي تغزاوة أن عواصف الرياح والزوابع الجوية ناتجة عن تكسير أحد طلاسمها، الشيء الذي أثار ذهول التجاني[1] بقوله: (ومن الغرائب ما اختصت به هذه البلدة من شدة عصف الريح، واتصال ذلك غير مختص بفصل من فصول العام، وهم ينسبون ذلك إلى طلسم كان مدفونا وأن بعضهم أخرجه وكسره فكان سبب ذلك عندهم دوام الريح). هذا الاضطراب المناخي لا يمكن فصله عن دور الرياح الشرقية الجافة ذات التأثير البالغ في المزروعات ونقاط المياه خاصة في المجالات الصحراوية.

بما أن العامة كانت أكثر فئات المجتمع تأثرا بالاضطرابات المناخية وتبعاتها الاقتصادية والاجتماعية، فإنها أضحت بافتقة للاستقلال بحكم تدني مستوى الوعي في صفوفها، فضلا عن سهولة تقبلها لأفكار الخلاص المرتبطة بالشعوذة. ولاحظ ابن الخطيب[2] أن السمة الغالبة على تفكير هذه الشريحة تتجلى في اقتران البساطة بالسذاجة، ولعل ذلك ما يفسر تعثر انخراطهم الفاعل في الحركات الثورية التي منيت أغلبها بالفشل في بحر الحقبة المدروسة.

(1) رحلة التجاني، م س، ص: 142 – 143.

(2) إن خصائص الذهنية المذكورة لامسها ابن الخطيب في أشياء لما زارها ولاحظ في بعض ما اعترى أهلها من تواد وغفلة نظيرها إن صدقت الأخبار سلامة وسذاجة. فقصر بمعظم الأسعار والتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار. ابن الخطيب، نفاضة الجراب، م س، ج 2، ص: 43. ومما يصور سذاجة العوام وتعلقهم تسليم أكثرهم بالخرافات والأوهام التي نسجت حول الثائر الجزيري، كما انتقد ابن عذاري الخرافات التي نسجت حول ثورة الجزيري في فشل الموحدين في إلقاء القبض عليه في المغرب وتمكن من الفرار إلى الأندلس حيث تواترت الأنباء بأنه جاز إلى الأندلس فأمر المنصور بالكتب إلى جميع الجهات بمحنته وأمارته وهيئته (...) وقد كان ذكر أنه يتصور في صورة الحيوان الذي لا يعقل مثل الحمير والكلاب والسنانير والقرد في ذلك من الأخبار ما تشي به أخبار أبي ملامة الكذاب فصح عند المستضعفين من العوام تصحيح ذلك الكلام، وكانوا متى رأوا سنورا في منازلهم لم يشكوا أنه الجزيري طالبا للاختفاء والفرار فيقتلون ذلك الحيوان الذي يرونه حيث كان بالإنكار. ابن عذاري، البيان المغرب، ق م، م س، ص: 207 – 208. وحسبنا أن التأمل في أساطيرها يلحظ تجذر الذهنية الخرافية في أوساط عوام المغرب والأندلس في الحقبة المعنية بالدراسة.

كما أن العواصف البحرية التي أغرقت أسطول أبا الحسن المريني لم تحدث حسب ذهنية التعليل الخرافي تحت تأثير عوامل المؤثرات الجوية والرياح المسببة لهيجان البحر، بقدر ما نسب ذلك إلى سهام العين، ويبدو حسب (علم أهل البصائر أن عين الحاسد أصابت فكان ذلك بالسحب النوالج)[1].

وفي غياب تعليل علمي واضح بين أسباب العواصف ونتائجها في ظل القانون الكوني الذي تخضع له المؤثرات المناخية، فقد فصلت بعض الروايات ما أشكل في النص المذكور في سياق حكي أسطوري تخيل رواته أبطال وهميين زعموا امتلاك ناصية خرق العوائد والتحكم في الظواهر الطبيعية من خلال سهام العين التي تصيب الهدف بدقة متناهية على النحو الذي كان يتدخل به الأولياء للحد من تأثير الاضطرابات المناخية عبر كراماتهم[2].

فقد أورد المقري[3] خبر هذه الذهنية المشبعة بالخرافة في سياق رواية أسطورية لحادثة غرق السفينة التي كانت تقل السلطان المريني والأسطول المرافق له، بقوله: (ذكر الشيخ أبو عبد الله الآبلي (...) أن رجلا كان بتلك الديار معروفا بإصابة العين فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب بعض أساطيله بالعين، وكانت كثيرة نحو ستمائة، فنظر إليها الرجل العائن فكان غرقها).

أما ابن الخطيب[4] وبالرغم من مكانته العلمية فقد وجدت مسوحات

(1) التميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، الرباط، 1984م، ص 90. النوالج: المثقلة بالأمطار الغزيرة.

(2) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 73.

(3) نفح الطيب، م س، ج 6، ص 216.

(4) شرح رقم الحلل في نظم الدول، أتمه للطبع وعلق عليه وقدم له عدنان درويش، منشورات وزارة

الذهنية الخرافية المشبعة بالطيرة طريقها إلى قاموسه في وصفه الحادث المذكور: مع أنه كان يدرك أن أبا الحسن المريني لما علم استبداد ابنه عليه سنة 750هـ/1349م -وهو عام وباء بالمناسبة- رحل على الفور ولم يكن بوسعه الانتظار أو اختيار الوقت المناسب (فركب البحر في الفصل المحذور والوقت المشؤوم). إن صدور هذا التحليل لحادثة غرق السفن من شخصية مشهود لها بوزنها الثقافي والعلمي، دعم بطريقة غير مباشرة وزن الخرافة في أوساط العوام، ولذلك صار اختيار أوقات السفر يتحدد بما يسفر عنه الزجر والتطير لتفادي الفترات المشؤومة، وذلك بعد صدور مؤشرات توحي بالإقدام أو الإحجام، وهذه عادة ترسخت في ذهنيات السذج كحقيقة غير قابلة للنقاش والجدل، لاسيما إذا حازت ممارسة هذه الطقوس على تزكية غير مقصودة من تصرفات أصحاب القلم من علماء القدوة.

ثانياً: الجفاف والذهنيات

أظهرت المؤثرات المناخية الصعبة حيرة وعجز سكان المغرب والأندلس عن إيجاد بدائل لمواجهة مضاعفاتها السلبية، وكانت الحيرة أشد بين صفوف العوام مما ساعد على ذيوع ذهنيات خرافية، أشفى أصحابها نوعا من القداسة في فهم أسباب حصول الاضطرابات الجوية وتأويل مآلاتها على محيطهم العام.

وفي هذا المنحى اعتقد معظم العوام (البركة في مطر نيسان)[1].

الثقافة، دمشق، 1990م، ص 278 – 279.

(1) ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص 158.

كما زعم عدد من الأندلسيين أن لنبات اللوف[1] (صوتا يسمع منه يوم المهرجان وهو يوم العنصرة، ويقولون أن من سمعه يموت في سنته تلك)[2]. إن استمرار هذه العقلية يعكس خروج الثقافة الغيبية لدى العوام عن سياقها الديني الواضح إلى براثن الخرافة والشعوذة، وهو اعتقاد لا يمكن عزله عن المحن التي تسببت فيها الآفات المناخية المترددة بمجال المغرب والأندلس في الحقبة المعنية بالدراسة.

وكلما اشتد تردد الاضطرابات الجوية كلما اتسع نطاق الذهنية الخرافية فهما وتأويلا. وانتصب لهذا الأمر ثلة من المشعوذين والمتجمين، بحيث لم تكن تخل قرية ولا مدينة من كاهن أو متجم أو ساحر يدعي القدرة على تحليل وتفسير كنه الغيب، والتظاهر بالقدرة على بسط السيطرة على المؤثرات المناخية وفق طقوس يزعم نجاعتها في استجلاب المطر، وتفجير عيون الماء، وتحويل القحط إلى خصب، وإبراء العلل الصعبة، والحد من الأوبئة الفتاكة، فضلا عن الإخبار بمبهم الاضطرابات المناخية المرتقبة على المستويين المتوسط والبعيد. منها تحديد الأسبوع الثاني من شهر دجنبر مناسبة لسقوط الأمطار. ولهذا تطلع العوام إلى إدراك ما يحدث فيها، فكان تأويل المتجمين يقضي أن لياليها السبعة إن كانت مطيرة، فتلك علامة على خصب العام، وإن كانت صاحية فالسنة قاحطة[3]. واضح إذن أن المتجمين والمشعوذين مارسوا تأثيرا من خلال

(1) قال ابن البيطار (وبلغنا بالأندلس تسميه ترغينة وبعضهم يسميه الصرلنة لأنهم يزعمون عندنا أن له صوتا). الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ / 1992م، مجلد2، ج4، ص 390
(2) نفسه.
(3) مؤلف مجهول، تقييد في الأنواء وشهور السنة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: (د 2765)، ص 320 – 321.

تضمين وصفاتهم الخرافية أعدادا وتربة لما لها من أثر في تصديق العوام للتعليل المرتبط بها. ولا غرابة في ذلك فغالبا ما كان يتقاعس الكثير منهم عن العمل في انتظار ما يؤول إليه أمر الطقس في غضون الأسبوع الثاني من الشهر المذكور على حد زعم معدل الطالع.

ومن خلال حيل هؤلاء، وقع العوام في شراك الاستجابة لطقوسهم. وفي هذا السياق ورد أن سكان غمارة دأبوا على تطبيق إملاءات السحرة لاستدرار المطر. ظهر ذلك جليا منذ القرن الرابع الهجري مع المتنبئ حاميم. في حين كان العوام يقصدون أخته دبو لأنها (كانت ساحرة، كاهنة وكانوا يستغيثون بها في الحروب والقحوط)[1].

وعلى الرغم من أن النص يعود إلى فترة تنامت فيها الخرافة إلى حد إدعاء حاميم النبوة فسيطر على ذهنيات عوام منطقة غمارة بما أوتي من حذق في أعمال الشعوذة وطلاسم السحر. فقد تطبعت الأجيال بعد ذلك بما تأسس في عهده من انتحال السحر والكهانة. يبدو ذلك جليا فيما قرره ابن خلدون[2] بشأن استمرار هذه الذهنية السحرية بشمال المغرب في صفوف النساء أكثر من الرجال –في سياق الزمن الطويل– إلى حدود عصره على الأقل، بقوله: (وما زالوا ينتحلون السحر لهذا العهد. أخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر منتحلي السحر منهم النساء العواتق).

ولم تكن هذه الملاحظة خاصة بنساء غمارة فحسب بل نجد نساء أغمات قد تعاطين السحر فاشتهرت فيهن زينب النفزاوية التي (كان لها

(1) مؤلف مجهول، الاستبصار، م س، 1985م، ص 191. / ابن خلدون، كتاب العبر، م س، ج6 ص 254 – 255
(2) العبر، م س، ج6 ص254 – 255.

أخبار مستطرفة غريبة كمثل أخبار الكهنة، فبعض يقولون إن الجن يكلمها، وبعض يقولون هي ساحرة، وبعض يقولون كاهنة)[1].

كما لم يجد المرابطون غضاضة في الاستعانة بدجل بعض المشعوذين والسحرة أثناء إقدامهم على بناء عاصمة ملكهم مراكش لتوفير الماء في بيئة جافة، مستفيدين من خدمات (بعض السحرة لوضع العراقيل التي تحول دون معرفة العدو مصادر الماء المجلوب للمدينة تجنبا لقطعه عنها)[2].

لا يمكن فهم الذهنيات الخرافية دون ربطها بأثر الاضطرابات الجوية وما ترتب عنها من مجاعات على طول تاريخ المجال المدروس، ذلك أن الطقوس المتبعة تعكس رغبة دفينة لتأمين الغذاء لاتقاء المهالك من النكسات التي تعقب السنوات العجاف سعيا لاستدرار رحمة السماء.

وفي هذا الصدد ارتبط العوام ببعض الدجالين الذين استغلوا بساطتهم مدعين القدرة على سوق الغيث أو منعه، فاختلط بذلك المقدس بالمدنس في ذهنيات الرعايا ومعتقداتهم وصعب عليهم التمييز. فرفعت القضية –التي لا تخرج عن أزمة ضمير المرحلة مدار الدراسة– إلى نظر أهل الفتوى، حيث (سئل ابن لب (توفي عام782هـ/1380م) عن رجل ادعى أنه يرفع المطر على الخلق ثمانية أعوام ولا يرحمهم بقطرة)[3]. وهذا تجاسر على حق الله في إنزال الغيث وإمساكه، وهو ما لم يقبله السكان بدليل إلحاحهم في معرفة رأي الشرع في النازلة.

(1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط 2، 1400هـ / 1980م، ج 4، ص 18.
(2) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهنيات، الأولياء)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، أبريل 1993م، ص 116.
(3) الونشريسي، المعيار المعرب، م س، ج2، ص 395.

يتضح مما سبق أن عدم إدراك إنسان العدوتين للعلاقات التفاعلية المتحكمة في الاضطرابات المناخية، وانحسار مجال العلوم وتضييق الخناق على رواد المنطق والفلسفة وعلم الأصول، وتشجيع المخزن للمتجمين وأدعياء الشعوذة، كل ذلك أسهم في سيادة ذهنيات التعليل الخرافي المحاكية أحيانا للأساطير البدائية، مما أصاب حركية إنسان المغرب والأندلس بالعجز. تجلى ذلك في تصديقه الجازم بمزاعم المشعوذين والمتجمين، وسعيه الدائم لتتفيذ توسم الكهنة والعرافين.

ثالثاً: الجراد والذهنيات

شكل الجراد آفة طبيعية خطيرة على موارد المجتمعات الاقتصادية والبيئية، وكان تأثيره بالغا في المغرب والأندلس إبان الحقبة الوسيطية، ذلك أن هجومه المفاجئ بأسراب عديدة على المزروعات والمغروسات غالبا ما كان يتسبب في مضاعفات سلبية وفي مقدمتها المجاعات وأمراض سوء التغذية.

وللإشارة فالمصادر التي أمكن الاطلاع عليها قابلت أخبار الخرافات والأساطير المرتبطة بالجراد بصمت مطبق باستثناء بعض النتف المتناثرة هنا وهناك، مما يشكل عثرة في مسار تطور البحث في تاريخ الذهنيات المرتبط بهذه الآفة، مما يفسح المجال للتخمين والحدس وقياس النصوص ببعضها، مع ما يكتنف هذه العملية من مزالق منهجية.

وعلى ضوء دراسة أجريت لتفكيك ألغاز الجراد المهاجر اتضح (أن المناطق الصحراوية الحارة شكلت بيئة مواتية لاستيطانه)[1]. فكانت

(1) مصطفى أحمد، الكوارث الطبيعية، إسهام ضمن (الكوارث الطبيعية آفة الجراد)، مطبوعات أكاديمية

الصحـــراء بمناخها الحار وما تـزال موطن انبعاث الجراد الجوال المتجه نحو المغرب والأندلس، وعادة ما كان اكتساحه يخلف دمارا بيئيا، وعجزا غذائيا إن لم نقل مجاعة فجائية بدليل (قدرته الفائقة على إتلاف مئات الأفدنة يوميا)[1].

ففـي القرن 6هـ/12م كانت شبه جزيـرة الأندلس مرتعا لجحافل الجراد الصحـــراوي المهاجـر، فابن القطـان[2] يشير بعبـارة مقتضبـة إلى اجتياحه لقرطبـة سنة 526هـ/1132م بقوله: (وأكلت الجـراد زرع قرطبة)، والراجح أن الجراد قضى على إرهاصات عودة الأهالي إلى حقولهم، بعدما عانوا محنا خيم فيهـا القحط على مجالاتهم سنتي 524هــ/1130م و525هـ/1131م[3]. ومن مضاعفات هذا التراكم أن كانت قرطبة بعد ذلك بسنتين مسرحا لهجوم الجـراد الذي كان مصحوبـا بالغلاء والمجاعـة، ممـا أدى إلى تفشي الوباء، مخلفـا خسائر مادية وبشرية فادحـة[4]. ولم يقتصر تخريب الجراد لضيعات قرطبـة فحسب، بـل امتد في سنة 527هــ/1133م ذاتهـا إلى معظم الحقول المنتجـة للحبـوب –على قلتها– وخـير من نقل خبر ذلك ابـن القطان بقوله: (وأكلـت الجـراد زرع هذه السنـة بالأندلـس)[5]، ممـا يعكس معانـاة الإنسان والحيوان طيلـة أربع سنوات في مصارعة الجوع، وندرة الأقوات وغلاء المتوفر منها في الأسواق. فأعوزته الحيلة في وضع حد لهذه الآفة، فاتجه نحو الأساطير والخرافات لمساعدته على تسكين معاناته وهواجسه من مآل مصيره المجهول.

العربية، سلسلة الدوريات، ربيع الثاني 1409هـ، ص 97.

(1) يسين عثمان، الوقاية من آفة الجراد، إسهام ضمن الكوارث الطبيعية آفة الجراد، مطبوعات أكاديمية العربية، سلسلة الدوريات، ربيع الثاني 1409هـ)، ص 68.

(2) ابن القطان، نظم الجمان، م س، ص 228.

(3) نفسه، صفحات 228 – 230 – 235 – 242 – 252.

(4) نفسه، ص 226.

(5) نفسه، ص 230.

وبنفـس العبارات السالفـة تقريبا اكتفى ابن القطـان[1] بإيراد الخبر عن دور الجراد في تخريب المراعي والمحاصيل الزراعية عام 528هـ/1134م، دون إعطـاء صورة عن الأوضاع الذهنية وإفرازاتها السلوكية، مرددا عبارة نمطية عـن آفة الجراد، بقوله: (وأكل ما كان علـى الأرض من زرع وكلأ). وباعتباره المصـدر الوحيد في اعتقادي الـذي تطرق لآفات الجـراد في القرن 6هـ/12م يستشـف مـن (نظم الجمـان) ما خلفه الجـراد المنتشر بقرطبـة من إتلاف للمحاصيل سنـة 529هـ/1135م حيث (محت الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ)[2]، وللعبـارة مغزى عميق تعكس بصدق حالـة الندرة في الأقوات بحيث تجرع القرطبيون مرارة في مواجهة شبح الموت جوعا. وكذلك شهدت الأندلس على التوالي سنة 530هـ/1136م (موالاة تأثير الجراد في زرع الأندلس التأثير الفاحش)[3].

والراجـح أن هـذا التردد الـدوري للجراد يجد تفسيره في قدرته الفائقة على خزن بيضه إعدادا لنوعه في الموسم المقبل، لتستمر آفة اكتساحه للحقول والضيعـات، ذلك أن الجراد (إذا رعت أيام الربيـع طلبت أرضا طيبة التربة رخوة، ونزلت هناك وحفرت بأذنابها حفرا وباضت فيها كل واحدة مائة بيضة إلا بيضة وطارة، وآفتها الطيور والبرد، ثم إذا أتت أيام الربيع واعتدل الزمان يفقـس ذلك البيض المدفـون، ويظهر مثل الذباب الصغـار على وجه الأرض، وأكلـت زرعهـا حتى قويت، ثم تنهض إلى أرض أخرى وباضـت كما فعلت في عامها الأول وهكذا دأبها)[4].

(1) نفسه، ص 235.

(2) نفسه، ص 240.

(3) ابن القطان، نظم الجمان، م س، ص 250 – 252.

(4) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401 – 1981م، ص 4/0 – 4/1.

هذا الوضع المزري كشف عجز الدولة كذلك عن وضع حد للجراد المنتشر نظرا لبساطة الوسائل، ومحدودية التجهيزات الموافقة لواقع العصر وحدود تطوره، خصوصا إذا علمنا أن للجراد قدرة فائقة على نثر بيضه في أماكن متعددة وبسرعة وكمية قياسيتين، مما يجعل من الصعب حسم دابره واستئصال شأفته بوسائل بدائية لا تتجاوز الجمع والحرق، إلى جانب بعض الوصفات الغريبة من أدبيات الطلاسم والشعوذة.

هذا العجز عكسته رسالة رسمية وجهها الأمير علي بن يوسف المرابطي لأهل الأندلس يعترف فيها بقوة الجراد التخريبية، وكأنها رسالة عزاء يمكن تأطيرها ضمن الحضور المعنوي للدولة، طبعا دون تقديم حلول إجرائية، لأن كارثة الجراد تجاوزت سقف الحلول والبدائل الممكنة. ومما جاء في الرسالة: (إن الجراد داء عضال، وإن كان كما يقال من البحر نشره، فإنما هو جمرة تحرق البلاد، وتجيع العباد، وشأنها الفساد (...) ينزل بالوادي قد امتلأ عشبا، وطلعت أزهاره شهبا (...) فيتركه جمرة سوداء لا يجد الضب فيها عرادا ولا التيت أراكا ولا قتادا)[1].

وهكذا لم يجد الأندلسيون عزاء سوى في فتاوى الفقهاء التي راعت متغيرات الواقع الطبيعي، وخففت نسبيا ولو على المستوى القانوني حدة الأزمة من خلال سعي مقاصدها إلى صيانة أموال المتعاقدين، ولاسيما في الشركات الفلاحية ومؤجري الضيعات الزراعية، إذ القاعدة إسقاط الكراء في كل الأحوال التي يكون فيها الجراد سببا مباشرا في إتلاف المحاصيل سواء بشكل كلي أو جزئي باعتباره من الجوائح، طبعا مع الحرص على عدم

(1) مكي محمود علي، وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1959 - 1960م، مجلد 7 - 8، ص 186 - 188.

إلحاق الضرر بصاحب الأرض. وفي هذا الصدد أورد الونشريسي[1] ما نص عليه الباجي بقوله: (إذا اكترى الأرض على أن تزرع بطونا فزرع الأولى فأكلها الجراد، وكثر الجراد حتى خاف أن يزرع غيرها فيأكلها الجراد فلا كراء عليه إلا قدر ما أقام الزرع الأول خاصة).

وخلال القرن 7هـ/13م تقلصت نسبية الجراد الجوال بالأندلس، بينما تداولت أسرابه على مزارع بلاد المغرب عام 617هـ/1220م[2]، فترك الأشجار عارية والسهول مقفرة. كما طفحت على مسرح الواقع اضطرابات مناخية يشد بعضها برقاب بعض، مصداق ذلك ما ورد على لسان ابن أبي زرع[3] -وغيره- في سياق سرده لحوادث القرن 7هـ/13م قوله: (وفي سنة سبع عشرة (وستمائة) كان الغلاء الشديد بالمغرب والقحط والجراد). ولعل الترتيب الوارد في النص مقصود بدليل ما شهده المغرب من غلاء وجفاف منذ عام 614هـ/1217م إلى حدود السنة المؤرخة وما بعدها، فكان طبيعيا أن ينتشر الجراد في بيئة مؤهلة سلفا لاحتضان الكوارث الطبيعية. مقابل ذلك تعود السكان على مكابدة ظروف المجاعة بالبحث عن وسائل بديلة لسد الرمق ولو كانت أطعمة غير معتادة ولا مألوفة، حيث تكرر هجوم الجراد على بلاد المغرب عام 619هـ/1222م[4]، وتكررت بسببه محن الموالم أيضا.

وفي الربع الأول من القرن 8هـ/14م تكرر المشهد السالف بالمغرب فصارت موجات الغلاء والمجاعة ممهدات تسبق الجراد في الغالب، أو

(1) المعيار المعرب، م س، ج8، ص 164.
(2) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م س، ص 54.
(3) روض القرطاس، م س، ص 358 / الناصري، الاستقصا، م س، ج2، ص 262.
(4) ابن القاضي، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، 1973م، ج1، ص 54.

تزامن مع اكتساحه وفي هذا الشأن يخبرنا ابن أبي زرع[1] وغيره بهذا التسلسل والتزامن للآفات المذكورة بقوله: (وفي سنة أربع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس (...) وفيها كان الجراد المنتشر بالمغرب).

كما تلوذ المصادر بالصمت المطبق عن إيراد أخبار الجراد المهاجر بين 625هـ/1228م و676هـ/1277م في العدوتين. إما لضموره واستئصال دابره وهذا احتمال ضعيف بالنظر إلى محدودية وسائل مكافحته. وإما لانشغال مؤرخي الفترة بالفتن والحروب الضروس من جهة، ومن جهة أخرى ألا يكون وقع الأوبئة والطواعين الفتاكة سببا لإهمالهم تدوين أخبار الجراد باعتباره أقل خطورة وفتكا في نظرهم؟. قد يكون هذا الاحتمال الأخير مقبولا أكثر من الأول على اعتبار أن نغمة الحروب لم تتوقف على مر تاريخ العصر الوسيط في مجال العدوتين، ومع ذلك أورد المؤرخون نتفا من أخبار الجراد مما يجعل الاحتمال الثاني أكثر ترجيحا. وحسبنا أن الأوبئة التي خضع لها المغرب والأندلس في الفترة المذكورة من شأن ما ترتب عليها من فواجع وأزمات أن تثني المؤرخين وأرباب القلم عن التعرض للجراد.

ولا شك أن الجراد زاد من تفاقم حالة الخصاص والندرة والغلاء من خلال استمرار أثر فتكه بالمزروعات والمحاصيل حتى بعد رحيله، بدليل ما أثبته الدينوري[2] بقوله: (إذا وقع على عود سمه بلعابه فلم ينبت أصله). ولم يجد الجياع من مصارعة الجوع بالتكيف مع واقع المجاعة والإقبال على استهلاك الجراد بصيغ مختلفة في سياق الصراع من أجل البقاء، فكان يباع

(1) روض القرطاس، م س، ص 359. / الناصري، الاستقصا، م س، ج2، ص 264.
(2) أحمد بن داود، النبات، تحقيق: برنهارد لفين، دار النشر فرانز شتاينر بفيسباد، 1973م، ج3، ص 65.

منه في (مراكش يوميا ما يقرب من ثلاثين حملا)[1]. أما (جراد الأندلس لا يؤكل لأنه ضرر محض وهذا تعين استثناؤه –حسب تعبير ابن العربي– بسبب ما فيه من سمية تخصه دون غيره من الجراد)[2].

وبعد مرور ما يناهز نصف قرن تقريبا ألم بالمغرب جراد منتشر سنة 679هـ/1280م. ومما يؤكد العلاقة الجدلية بين الجراد وما يترتب عليه من غلاء ومجاعة إلى حد يصعب الفصل بينهما ما ورد على لسان ابن أبي زرع[3] بقوله: (وفيها (679هـ) كان الجراد ببلاد المغرب أكل جميع زروعها فلم يترك بها مخضرا، وفيها كانت المجاعة)، مما يقوم دليلا على أن المجاعة المذكورة ناشئة عن أزمات غذائية فجائية تسبب فيها الجراد الصحراوي المنتشر (أفقيا من الهند إلى حدود المغرب، وعموديا من سواحل البحر المتوسط إلى حدود خط الاستواء، وغالبا ما يكتسح شمال إفريقيا في فصل الربيع)[4].

كما عصفت بالمغرب موجة (قحط شديد لم ير الناس ماء)[5]، واكبه جراد كاسح سنة 683هـ/1284م مما زاد من تفاقم كارثة القحط والغلاء. ونظرا لشدة الدمار الذي ألحقه بموارد السكان المعيشية فقد بقيت آثاره محفوظة في الذاكرة الشعبية حيث أطلقوا على 683هـ/1284م (عام الجراد)[6].

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1414هـ / 1994م، ج1، ص 233.
(2) الأسد ناصر الدين، مقدمة لدراسة الجراد في تراثنا، إسهام ضمن الكوارث الطبيعية، آفة الجراد، مطبوعات أكاديمية المغربية، سلسلة الدورات، ربيع الثاني 1409هـ، ص 23.
(3) روض القرطاس، م س، ص 535. / الناصري، الاستقصا، م س، ج3، ص 89.
(4) ابن النحوية، الجراد بين الدراسات الحديثة وبين التصورات الموروثة، ضمن: الكوارث الطبيعية، آفة الجراد، مطبوعات أكاديمية المغربية، سلسلة الدورات، ربيع الثاني 1409هـ، ص 61.
(5) ابن أبي زرع، روض القرطاس، م س، ص 445.
(6) التادلي، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبعة حجرية، ج2، (د – ت)، ص 146.

وبعد فترة استقرار طويلة عمرت زهاء ربع قرن، عاد الجراد من جديد مع منتصف العقد الأول من القرن 8هـ /14م، فأتلف المزروعات وأتى على المغروسات فتركها قاعا صفصفا[1]. وكمادتهم لجأ العوام إلى استهلاك أطعمة غير مألوفة زادت من استفحال الأمراض والأوبئة.

وفي سنوات القحط وهجوم الجراد هيمنت الخرافة على الأندلسيين وتصوروا أن وراء حدوث الآفات المناخية قوى وطلاسم خارقة ،منها أنه (كثيرا ما (كانت) تجاح زروع لورقة بالجراد، ويزعم أهلها أنه كان فيها جرادة من ذهب طلبا لدفع مضار الجراد، فسرقت من هناك فلم يزل الجراد من حينئذ عندهم فاشيا)[2]. ومما يدل على (أن ميكانيزم التفكير كان خرافيا)[3]، أنهم استسلموا للقوى الوهمية المؤثرة حسب زعمهم في الكون، مدعين أنه (لا يمكن دفع الطلسمات لأننا قد شاهدنا أنفسنا آثارها ظاهرة إلى الآن من قرى لا تدخلها جرادة ولا يقع فيها برد)[4].

وللإنصاف فقد بذلت بعض دول المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط جهودا لمكافحته، حيث رصد بعضها اعتمادات مالية، وجهزوا فرقا خاصة لجمعه وتحويله إلى مصدر للرزق والغذاء.

ونظرا لموجات الجراد والبرد وأثرهما السلبي على الإنتاج الزراعي، فقد شكلا هاجسا حيرا النخب العالمة، بحيث أفقدا بعض من ينتسب إلى

(1) الباسي، المقصد الشريف، م س، ص 1/8.
(2) الحميري، الروض المعطار، م س، ص 512 - 513. / لورقة بالأندلس من بلاد تدمير، وهي على جبل عال، وبينها وبين مرسية أربعون ميلا. نفسه، ص 512.
(3) أولاد الفقيهي عبد الواحد، السيكولوجيا العربية بين الواقع والآفاق، مجلة الوحدة، السنة 5، عدد 50 ربيع الثاني 1409هـ نونبر 1988م، ص 31.
(4) ابن حزم، كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبع على نفقة الجمالي أحمد ناجي والخانجي محمد أمين وأخيه، دار الفكر مطبعة التمدن، ط 1، 1321هـ، ج 5، ص 4.

سلكها الثقة في نجاعة الأساليب العلمية في مواجهة موجات الجراد والبرد. وفي هذا الصدد قدم الطغنري[1] وصفة لمساعدة الفلاحين على طرده أقل ما توسم به إن صحت النسبة أنها وصفة سحرية مشتتة بالخرافة، فقال (إن أخذ دم جراد أعمى فدفن في أربعة أقطار قرية صرف الله تعالى البرد عن تلك القرية، أو يقطع ذلك الجراد أربع قطع وتدفن كل قطعة في أربعة أقطار القرية).

وعموما فالجراد خلف آثارا وخيمة بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، لأنه كان بمثابة الشرارة الداعمة للقحط والجفاف، والممهدة لاستفحال المجاعة وسوء التغذية وما يتمخض عنهما من سلوكات اجتماعية شاذة.

(1) الطغنري، زهرة البستان ونزهة الأذهان، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم (د1260)، ص 55.

الفصل الثالث

المناخ والطقوس بالمغرب والأندلس
خلال العصر الوسيط

إن البحث في العلاقة التفاعلية بين المناخ والمجتمع أفضى إلى رصد ظواهر ملفتة تصنف ضمن لائحة البدع والمحدثات، تجلت في طقوس وتراتيم احتفالية أحياها الإنسان ودعمتها العادات والتقاليد الموروثة.

وفي هذا الصدد ارتبط الناس بإحياء تفاصيل طقوس غابرة لمواجهة قساوة الظروف المناخية، منها طقوس احتفالية مرتبطة بالجفاف والخصوبة، وأخرى متصلة بعيد العنصرة والمهرجان، وثالثة ذات صلة بالقطاع الفلاحي لدفع ما يصيبه من جوائح وآفات طبيعية.

أولاً: طقوس احتفالية مرتبطة بالجفاف والخصوبة

شكل الماء على امتداد تاريخ البشرية عنصرا أساسيا لاستمرار حياة الإنسان والحيوان والنبات، ذلك أن كل نقص يعتري هذه المادة الحيوية المركبة من اتحاد ذرتين من غاز الهيدروجين وذرة من غاز الأكسجين، من شأنه أن يحيل الأمن والاستقرار إلى اضطرابات وفتن، ويحيي السلوكات الدفينة في التكوين البشري، ولذلك عده أحد الدارسين[1] (مصدر الغنى الفلاحي والازدهار الصناعي). فأضحى التوفر على الماء ميزة متفردة ما فتئ العوام يرددونها في أمثالهم[2].

وفي هذا الصدد مارس السكان بالمغرب والأندلس طقوسا احتفالية تتراوح بين البسيط والمركب لاستدرار عطف السماء، وجعلها تجود بالغيث

(1) Brunhes. (g) . L'irrigation. ses conditions Géographiques. ses modes et son organisation dans la Péninsule Iberique et dans l'Afrique du Nord. Librairie de l'académie de Médecine . Paris. 1904 p. 9

(2) أبو يحيى عبيد الله الزجالي، ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، م س، ص 333.

زمن الضيق والشدة التي يسفر عنهما وجه الاضطرابات المناخية وتوابعها من الغلاء والأمراض والمجاعات.

إن الطقوس الاحتفالية المرتبطة بالمضاعفات السلبية للمناخ انتشرت بين العوام كما تنتشر النار في الهشيم، والملاحظ أن معظمها شبيه إلى حد ما بنسق الأساطير البدائية، منها اعتقاد وجود الأرواح الشريرة في بعض الحيوانات والنباتات، وحتى تستجيب السماء وتجود بالغيث كان لابد بالنسبة للمحتفلين من تدمير تلك الكائنات لطرد ما بها من أرواح شريرة تقف حسب مخيالهم حجر عثرة أمام نزول الأمطار. وفي سياق تفحص بنية هذا التدمير الذي يتوهم فيه المرء أنه يجلب الأمطار والخصب، يقدم الحيوان أو النبات في إطار طقوس معينة قربانا للذبح أو الحرق، ذلك أن كل من قفز على النار أو شارك في الطقوس، فإنه يسهم من وجهة نظر المحتفلين في طرد الأرواح الجالبة للجفاف.

وفي هذا السياق كانت القبائل العربية المستوطنة للمغرب تزعم مكافحة الجفاف بطقوس احتفالية تعود إلى جذورها الوثنية الضاربة في عمق تاريخ الجاهلية، وذلك (بربط بعض فروع أشجار العشر والسلع في أذناب البقر ويصعدونها إلى جبل مرتفع ويضرمون النار فيها زعما منهم أنهم يمطرون من وقتهم)[1]. وذهب بعض الدارسين[2] إلى تحليل إيماءات الطقوس الاحتفالية الرابطة بين البقر ونزول الأمطار، مبينا أنها (علاقة قديمة إذ يمثل هذا الحيوان قوة تتحكم في السحب وتنزل المطر، وما استسقاؤهم بالبقر إلا من

(1) العشر لا يأكله حيوان ومنابته القيعان وبطون الأودية وقد ينبت بالرمل، رحلة التجاني، تقديم وتحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب ليبيا / تونس 1981م، ص 313 - 314.

(2) بنعبد الله، المادة في الفكر الإسلامي والأدب العربي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية 1417هـ - 1996م، ج 2 ص 394.

مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والإرواء. ويبدو أن النار المضرمة في حطب السلع والعشر إنما هي تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا (الإله- الثور).

هذه الذهنيات التي كانت تربط بين الثور والخصب تجد صداها في مشرق العالم الإسلامي كذلك في سياق وحدة ظاهرة الخرافة وإن اختلفت ملامحها وتراتيم طقوسها[1].

يتضح من قسمات هذا السلوك الاحتفالي الذي قدمت فيه البقر قربانا تأكلها النيران، البعد الأسطوري من خلال تدمير هدي لإرضاء قوى وهمية يعتقد فيها القدرة على خرق العوائد وقهر قوى الطبيعة القاسية لاستدرار عطف السماء. رغم أن مثل هذه الممارسات الاحتفالية العقدية كانت تلقى تعاطفا بين شرائح واسعة من رعايا المناطق المتضررة من الاضطرابات المناخية الفجائية، فإنها ظلت مرفوضة بقوة من بعض النخب العالمة من ذوي القلم والعلم[2].

(1) أورد التوحيدي أنه (إذا كثر نزو الثيران وكثر حمل البقر دل ذلك على كثرة الأمطار). الإمتاع والمؤانسة، ج 1 ص 164. نقلا عن بنعبد الله، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية، 1417هـ / 1996م ج1، ص 394.

(2) هذا الرفض عبر عنه أمية بن أبي الصلت بقوله:

لا على كوكب ينوء ولا ريـ
ـح جنوب ولا ترى طخرورا
إذ يسفون الدقيق وكانوا
قبل لا يأكلون شيئا فطيرا
ويسوقون باقر السهل للطو
د مهازيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران في ثكن الأذ
ناب منها لكي تهيج البحورا

فاشتوت كلها فهاج عليهم
ثم هاجت إلى صبير صبيرا
فرآها الإله ترشم بالقطـ
ـر وأمسى جنابهم ممطورا
فسقاها نشاصه واكف الغيـ
ـث منه إذا رادعوه الكبيرا
سلعا ما ومثله عشرا ما
عائلا ما وعالت البيقورا

وقال آخر يعيب عليهم سلوكهم العدواني:

لادر در رجال خاب سعيهم
يستمطرون نزول الغيث بالعشر
أجاعل بيقورا مسلعة
وسيلة لك بين الله والمطر

تحيل بالناس: أي تطمعهم في المطر. / سنة: قحط. / العضاة: أعظم الشجر. / الطخرور: القطعة من السحاب. / باقر السهل: البقر الموجود في السهول. / تبور: تهلك. / الصبير: الجبل. / النشاص: السحاب المرتفع. / واكف: الذي يسيل منه المطر. / البيقور: جماعة من البقر. رحلة التجاني، م س، ص 315 / أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين (524 - 876هـ / 1130 - 1472م)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط1، ص 246 - 247 / بنعبد الله، الماء في الفكر الإسلامي، م س، ج 1 ص 314 / ج 2 ص 406 - 407

المقري، نفح الطيب، م س، ج 1 ص 204 - ج 2 ص 74.

لاشك أن المؤثرات المناخية الصعبة مارست أنواعا من الضغط على إنسان المغرب والأندلس، وفي إطار الرهان المفروض عليه ابتكر أساليب خرافية بدائية لمواجهة خطرها، وسعى من خلالها إلى تحقيق التوازن بين الأضداد (القحط/ المطر/ الجوع/ الشبع) لتخفيف الضغط الممارس عليه وفق طقوس ذات أغراض شبيهة بما عبرت عنه الأساطير البدائية. ذلك أنها (تبحث في الخوف عن أسرار الطبيعة، وإلى جانب تسكين مخاوف الإنسان أمام المجهول (...) وتساعد على إنكار وإبطال تأثير الاختيارات المؤلمة التي يفرضها الواقع على الإنسان)[1].

(1) الوليد ديبونس، الأسطورة بين الثقافة العربية والثقافة الإسلامية، مطبعة إنفو برانت، فاس، ط1.

وفي هذا المنحى كشف أحد المؤرخين[1] بنوع من الدهشة والاستغراب ما كان يعتقده عوام جهة غرب الأندلس من أفكار ومعتقدات اتخذت حلة طقوس احتفالية بغية التأثير في القحط والرغبة في تحويله إلى خصب، ولهذا فهم (يزعمون أنهم إذا رغبوا في المطر أقاموا السارية فتمطر جهتهم).

وعادة ما كانت الطقوس الاحتفالية الموجهة للحد من سطوة المؤثرات المناخية، عارية من المنطق العلمي، بحيث لا يعثر الدارس بين ثناياها على علاقات سببية تنظمها، باستثناء تمني رفع مضاعفاتها السلبية كنتيجة وهمية، بوسائل غير خاضعة للملاحظة والقياس كصلة وصل غير طبيعية بين المقدمات والنتائج.

وفي هذا الصدد عثرت في المصادر الجغرافية على نص غني، تكمن أهميته فيما يكشف عنه من طقوس احتفالية غريبة، بقيت سارية في بعض المناطق الشمالية للمغرب الأقصى مدة ليست باليسيرة. ذلك أن قوما من سكان غمارة اتبعوا نوعا من الدجل يخرجهم من عالم الشهادة إلى عالم السبات العميق مدة ثلاثة أيام وبعد استيقاظ النائم يصدع بأحوال الجدب والخصب والفتن، مما أثار استغراب البكري[2] بقوله: (ومن أعاجيب غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقادة يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ولو بلغ به أقصى مبلغ من العذاب، فإذا كان بعد ثلاثة من غشيته استيقظ كالسكران (...) فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب وهذا عندهم مستفيض مشهور).

1996م، ص 12.

(1) المقري، نفح الطيب، م س، ج2، ص 74.

(2) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، نشر دي سيلان، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857م، ص 101 - 102 / مؤلف مجهول، الاستبصار، م س، ص 192.

هذه الصورة الملحمية تعبير دفين عن الرغبة الملحة من سكان شمال المغرب في تغيير حال الجدب الجاثم على المنطقة، من خلال الانسحاب من مواجهة الواقع المتردي الذي فرضته المؤثرات المناخية الدورية، واللجوء إلى استيراد أخبار الأرصاد المستقبلية من واقع الرؤى والخيال، دون دعم البدائل العملية الميدانية لمواجهة ندرة الماء ومعضلة الجفاف[1]. وللإشارة فإن كثرة تردد الجفاف تركت بصمات واضحة في ذاكرة الغماريين الذين اتخذوا من آثرها الاقتصادية والاجتماعية وكذا من مضاعفاتها النفسية العميقة مناسبة للتقويم والتأريخ ابتداء من قحط سنة 637هـ/1239م على الأقل[2].

ثانياً: جوانب من طقوس الاحتفال بعيد العنصرة / المهرجان

إن المؤثرات الدورية القصوى التي عرفها مناخ المغرب والأندلس خلال الحقبة الوسيطية على الأقل رهنت الوضع الزراعي وتحكمت في عدم استقرار مردوديته السنوية تبعا لعدم انتظام التساقطات المطرية التي كانت تتلو في العادة عمليات الحرث والبذر أو تسبقها أحيانا مما كان يؤذن بجملة من الآفات المتنوعة. فكانت النتيجة المعتادة لهذا الوضع استفحال الغلاء،

(1) ذكر العمري أن شرب أهلها من الماء مجلوب إليهم من البحر من بليونش (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1409هـ - 1988م، ص 137 - 138.

(2) حين كانوا يسمون هذه المجاعة الشديدة (بعام سبعة وهو مشهور عندهم يمثلون به بينهم). ابن عذاري، البيان المغرب، م س، ص 351 / الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط2، 1403هـ - 1983م، ص 83 / ومما يعكس مشكلة ندرة الماء أن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المومن جلب الماء إلى سبتة من قرية بليونش على بعد ستة أميال في قناة باطنية عام 580هـ / 1184م. الحميري، الروض المعطار، م س، 103 - 303.

واندلاع شبح المجاعة. هذا الاضطراب المناخي لم يقتصر على مجال المغرب والأندلس فحسب، بل شمل مجال (الحوض المتوسطي وأوروبا الغربية) برمتها[1] إبان الحقبة المعنية بالدراسة.

ولتحقيق رغبة إنسان المجال المعني بالدراسة في تأمين موارد عيشه، فقد اهتدى على المستوى الاحتفالي إلى تخليد جملة من الطقوس السحرية الخرافية. وفي هذا الصدد احتفل الأندلسيون بعيد العنصرة[2]، وهو المعروف عندهم بالمهرجان[3]، ثم اقتبسه المغاربة منهم على أساس أنه (عيد فلاحي كانوا يحتفلون به يوم 24 يونيه من كل عام ولا يزال المغاربة يحتفلون به إلى الآن)[4].

ومن الطقوس الاحتفالية التي التزم بها معظم أهالي العدوتين إبان احتفالهم بالمهرجان إضرام النار في شعلة نار (يسمونها العنصرة يقيمونها في الشوارع ويقفزون فوقها)[5]، ويرش بعضهم بعضا بالماء، تيمنا برمز الخصب والحياة، زعما أنها تجنبهم كوارث الجدب وترسل عليهم ما يحتاجونه من التساقطات.

(1) Le roy ladurie Emmanuel. Histoire du climat depuis l'an Mil. Champs Flammarion. Paris. Vol 2. 1983. p 42.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ - 1998م، ج 7، ص 227.

(3) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م، مجلد 2، ج 4، ص 390.

(4) عبد العزيز بنعبد الله، معطيات الحضارة المغربية، دار نشر المعرفة، الرباط، ط3، 2000م، ج 1، ص 42.

(5) دندش عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني (510 - 546هـ / 1116 - 1151م)، تاريخ سياسي وحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ / 1988م، ص 327 - 328.

وفي مجال يسوده الجفاف والقحط لم تكن تجد محاولات العلماء لصرف الناس عنها، مكتفين بإعلان الموقف الشرعي منها بوصفها بدعة[1]. كما لم يُجد الزجر والتقريع الذي هدد به أهل الحسبة كل من رش الناس بالماء في الأسواق والشوارع يوم المهرجان[2]، مما يعكس تدني مستوى التدين في الأوساط الشعبية، من خلال تغليب البدعة والعادة على مقتضيات العبادة، بحيث لم يجدوا أي غضاضة في إحياء طقوسهم الاحتفالية استشرافا لابتهاجاتهم بخصب السنة المقبلة على اعتبار أن العنصرة عيد نضج الثمار[3].

وحسب المقري[4] جرت عادة إنسان المغرب والأندلس في هذا العيد ارتداء الثياب البيضاء من أول يوم بدء طقوس الاحتفالات، ولا تخلع إلا عند استهلال أول يوم من شهر أكتوبر. هذا السلوك جزء من نسق الطقوس الاحتفالية الرمزية المصاحبة للمهرجان الدالة على التبرك والتطهر لطرد عوامل القحط والجدب واستجلاب الخصب. ذلك أن الثوب الناصع لا ينزع إلا بعد بدء موسم الشتاء، فضلا عن الرغبة في طرد الأرواح الشريرة التي يزعمون وساطتها في نقل الأمراض والأوبئة التي اعتبروها من توابع القحط والمجاعة.

وفي هذا المنحى كذلك، أضفى الأندلسيون على طقوسهم الاحتفالية هالة تنطوي على إرهاب المحتفلين من خلال إشعارهم بأهمية احترام تمائم المناسبة المحروسة من قبل نبات اللوف الذي يصدر (صراخا يسمع منه في

(1) الطرطوشي، الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، تونس، 1959م، ص 141.

(2) ثلاث رسائل في آداب الحسبة، تحقيق إ. ليفي بروفنصال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955م، ص 124.

(3) ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، م س، مثل رقم 914.

(4) نفح الطيب، م س، ج 2، ص 752.

يوم المهرجان وهو يوم المنصرة، ويقولون أن من سمعه يموت في سنته تلك)[1].

إن الاضطرابات المناخية المتكررة جعلت عوام المغرب والأندلس أسرى إحياء طقوس احتفالية موغلة في أساطير الماضي والموروث الثقافي، فحاول العزفي جاهدا تقليص دائرتها في سبتة مسخرا في ذلك وزنه العلمي والسياسي، مستعيضا عنها بإحياء ذكرى المولد النبوي الشريف كبديل عن بدعة بعبادة[2].

إن هذا البديل الذي ربط الأمة بهويتها شكل عنصرا أساسيا في خفوت ظاهرة الاحتفال بالمهرجان دون القضاء عليها نهائيا، في حين زاد الاهتمام بالمولد النبوي أكثر، بحيث (لم يتخذ صيغة رسمية في المغرب والأندلس إلا في أواخر القرن السابع الهجري، لكن من المحتمل أن يكون الرعايا قد احتفلوا به بطريقة تلقائية -قبل ذلك-)[3].

إن المحن والمعاناة التي واجهها إنسان المغرب والأندلس جراء المضاعفات الصعبة للمؤثرات المناخية في فترات التدهور والانحطاط شكلت بآثارها المأساوية مخزونا ثقافيا؛ وجه العامة نحو اتخاذ مواقف سلوكية سلبية؛ جسدتها طقوس المحاباة والاستسلام لقوى خارقة تسربت إلى معتقداتهم عبر الصدمات والفواجع التي ترتبت عن ندرة المياه في الحد الأدنى والجفاف في الحد الأقصى. ذلك أن تشبثهم بطقوس خرافية يعكس الرغبة الملحة في تسكين ما كان ينتابهم من هواجس تهم مصيرهم المجهول جراء تردد الآفات والنوائب، لاسيما وأن شرائح واسعة من الرعايا اضطرت تحت

(1) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية، م س، مجلد 2، ج 4 ص 190.

(2) مؤلف مجهول، بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1404هـ / 1984م، ص 22.

(3) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، م س، ص 91.

وخزات المجاعة المترددة إلى تغيير أنظمتها الغذائية، بحيث كان الجائعون يضطرون إلى تناول مواد تكميلية، حيث يرتد الاقتصاد إلى مستوى بدائي، حيث يشتد التطفل والقنص ويسود التقاط ثمار البراري، وكلها مظاهر تعكس عودة الإنسان إلى الطبيعة[1].

ثالثاً: طقوس سحرية لمواجهة الجوائح المناخية

إن النتائج التي توصل إليها خبراء صنعة الفلاحة عن طريق الاستقصاء والتجربة الميدانية في الحقول والبساتين الزراعية جعلتهم يدافعوا عن حصيلتها العلمية بحرارة، ولم يتوانوا في تثبيتها كلما لاحظوا أو وصل إلى علمهم ما يخالفها بحكم الجهل أو العادة في التدبير، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في باب نصب الكروم بلغة التحذير على لسان ابن حجاج[2] بقوله: (وإياك أن تنصب في سفوح الجبال لأن السيل والماء يكشف أصولها؛ والسواحل موافقة للكروم لسخونتها وبرد نداء البحر ورطوبتها). ولا غرو في ذلك، فقد نبغت عبقرية ابن حجاج في إشبيلية، وأضفى على تجاربه طابعا علميا مميزا فكانت بعض نقوله عن أهل الدراية من علماء الفلاحة، وبعضها الآخر (نتيجة تجاربه الميدانية التي أشرف عليها في إقليم الشرف غربي إشبيلية)[3]. كما أن دلالة عنوان مؤلفه (المقنع في الفلاحة)

(1) Rosenberger (B). Cultures complémentaires et Nourritures de Substitution au Maroc (XV – XVIII siècle) Annales E.S.C. 35 ème Année N°3 – 4. Mai – Aout. 1980. p. 494.

(2) المقنع في الفلاحة، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، تدقيق وإشراف عبد العزيز الدوري، عمان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1406 هـ 1986م، ص 19.

(3) الطيبي، أرجوزة ابن ليون، كتب الفلاحة الأندلسية، أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحة، ضمن

تحمل أكثر من مغزى حول ما يفترض فيه من منهج علمي مبني على الحجة والبرهان. ومع ذلك تسربت إلى كتابه المذكور بعض الخرافات التي لم يكن لـه فيها رأي ولا تعليل، وكان يكتفي في الغالب بترداد عبارة (وحكاه جميع أصحاب الفلاحة)[1]. ومن بين سلوكات الوقاية والعلاج الخرافية التي لا تنضبط لمنطق علمي ولا لتجربة، ما أورده الطغنري وأبو الخير[2] تحت عنوان (في علاج الزرع وما يطرح الآفة عنه)، ذلك أن الفلاح (إن أخذ جلد ذيب وصنع منه غربالا، وثقب ثلاثون ثقبة عدد كل ثقبة، بقدر ما تدخل السنة (كذا) فيه وغربلت به الزراريع سلمها الله تعالى من الآفات).

ولوقاية المزروعات من آفة الطير، اقترح صاحب المقنع في الفلاحة[3] نهج سلوك غريب لا يقبله العقل، ولا يدعمه المنطق لغياب عناصر العلاقة الناظمة عادة ما بين الأسباب والمراحل والنتائج. فقال: (إن غطيت المكيال الذي يكال بـه البذر بجلد ضبع حتى يعلق به ريحه، لم يكتل به بعد ذلك شيء من البذر إلا تنكبه الطير). والملفت للانتباه أنه على الرغم من ظهور ملامح مدرسة فلاحية رائدة، بما تراكم عبر قرون من كتب وموسوعات، نقل منها اللاحق من الرواد عن السابق، فإننا لا نكاد نجد تمحيصا كافيا للخرافات الدخيلة، ولا تخلية لأساليب الشعوذة والسحر والأسطورة أحيانا من ثنايا مؤلفات أدب الفلاحة، وخاصة منها تلك التي ألفت أو لخصت في حقبة الدراسة.

أبحاث المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب المنعقد في دير الزور (12 - 14 نيسان أبريل 1988). إعداد مصطفى شيخ حمزة، إشراف خالد ماغوط، معهد التراث العلمي العربي، منشورات جامعة حلب، 1414 / 1996م، ص 165.

(1) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، م س، صفحات 11 - 12 - 13 وما بعدهن.

(2) زهرة البستان، م س، ص 54 / أبو الخير، كتاب في الفلاحة، طبع على نفقة قاضي وزارات التهامي الجعفري، المطبعة الجديدة الطالعة، فاس، طبعة 1357 هـ، ص 12.

(3) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، م س، ص 11 - 12.

ومن ثمة فالعقلية التقويمية النقدية الملحة بحاسة المراجعة والتصحيح، كانت شبه معطلة بدليل استمرار نقل طقوس احتفالية بدائية من كتاب الفلاحة النبطية[1]، واستمر تداولها إلى حدود عصر ابن ليون التجيبي على الأقل، منها على سبيل المثال ما ورد في أرجوزة هذا الأخير بخصوص وقاية الثمار من آفة النمل نظمه:

ويمنع النمل عن الثمار خلخال اصطب بالاستقرار[2].

على أن أحسن نموذج كاشف لطقوس الوقاية الاحتفالية المستغرقة في الخرافة والتفكير الأسطوري ما حكاه أبو الخير[3] من (أن الجارية العذراء التي أن نكاحها، إذا أخذت ديكا وهي حافية عريانة منشور شعرها ثم طافت به حول الزرع فإن ذلك الزرع يسلم من الآفات، وإن كان زوان فيه يهلك لوقته). مثل هذه الطقوس الاحتفالية لا تنبئ إلا على عقلية لم تستفد من المناخ العلمي التجريبي الذي اشتهرت به إشبيلية[4].

(1) ومن بين الطرق السحرية التي ساقها ابن وحشية للدلالة على ما يزيد في كمية الماء عند وجوده أو نقصانه قوله (وقد جربنا أن العيون الشارع منها الماء إذا نقصت من مقدار ما كان ينبع منها، فلتأخذ إنسان جارية حسناء حديثة السن فأجلسها على شيء عال مقابل الينبوع، ثم أمرها أن تزمر بالناي زمرا كثيرا متتابعا، وتمادي بالناي نحو مخرج الماء، تفعل ذلك ثلاث ساعات من النهار، ثم يأمر جارية أخرى، في مثل سنها أو قريب منه أن تأخذ طبلا فتوقع عليه وتغني أحسن غناء تقدر عليه، وتزمر الأخرى عليها بالسرناي في إيقاع التوقيع على الطبل، فإن الماء يكثر بذلك وتزيد كميته، إما في ذلك الوقت سواء وإما بعد أربع عشرة ساعة تمضي من ذلك الوقت وإما في الوقت مثله من الغد، وليكون زمر الأولى وحدها ثلاث ساعات، وغناء الأخرى على الطبل والزمر والتوقيع أربع ساعات فيكون مبلغ ذلك سبع ساعات متصلة، فهذا وجه قوي في زيادة كمية الماء، مجرب صحيح). ابن وحشية أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني، كتاب الفلاحة النبطية دمشق، 1993، ط 1 الترجمة المنحولة لابن وحشية تحقيق توفيق فهد، ج 1 ص 67، والأمثلة من هذا القبيل كثيرة انظر صفحات 66 - 68 - 69 - 70 - 74 - 76.

(2) الطيبي، أرجوزة ابن ليون التجيبي في الفلاحة، م س، ص 172.

(3) كتاب في الفلاحة، م س، ص 13.

(4) حيث تذكر النصوص (أن أبا الخير كان وثيق الصلة بأبي عبد الله بن حسان الطليطلي (المقر في

ويرجع أحد الدارسين[1] استمرار مثل هذه الطقوس الاحتفالية، إلى جانب البدائل التجريبية في كتب الفلاحة إلى (أن انفصال الفلاحة وعلوم الطبيعة عن الحكمة والفلسفة ابتداء من منتصف القرن 5هـ/11م قد أدى إلى انزلاق النشاط الفلاحي تدريجيا نحو ممارسة السحر والشعوذة، والتعلق بالتمائم والتعاويذ والاتكال على الغيب، وتعليق الحروز استدرارا للبركة واتقاء لشر قوى الطبيعة).

كما أرهقت آفة البرد الفلاحين وعجزوا عن دفع آثارها، وبالتالي انساقوا مع ما جاء في بعض الطقوس الاحتفالية وطبقوها بحذافيرها دون أدنى تردد. مما يعكس الرغبة العميقة في التخلص من الجوائح التي تتلف محاصيلهم وتدفع بأغلبهم إلى حال الخصاصة والضيق، ولو باتباع أساليب مبهمة وطقوس غير منطقية، معتقدين أن كل من (قد من جلد الدلدل شير وشدّ بأصل من أصول الكرم من أكثره حملا، لم ينزل في ذلك الكرم برد)[2].

هذه المعتقدات وغيرها تدعو إلى الشك في مستوى الحضور العلمي التجريبي في مؤلفات أدب الفلاحة، لأنها لا تمت بصلة إلى أي ثقافة عالمة لدى رواد هذه الصنعة. ومما يدعم هذا التخريج ما تكرر من أساليب وقائية وعلاجية أقل ما توسم به أنها عبارة عن طلاسم سحرية، وخرافات تنجيمية

الفلاحة) وأنه كان يرجع إليه في كثير من أمور الزراعة والفراسة، وغالبا ما كان يتم اللقاء بين الرجلين في جنة السلطان بإشبيلية، مما دعا محقق عمدة الطبيب إلى ترجيح كون أبي الخير من الخبراء الزراعيين العاملين في بساتين المعتمد بن عباد تحت نظر ابن بصال). أبو الخير، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تقديم وتحقيق وترتيب محمد العربي الخطابي، الرباط، 1411 هـ / 1990 م، ق 1، ص 23 من مقدمة التحقيق.

(1) اختصارات من كتاب الفلاحة، دراسة وتحقيق أحمد الطاهري، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، البيضاء 1422 هـ، ص 25 من مقدمة التحقيق.

(2) ابن حجاج، المقنع في الفلاحة، م س، ص 12 – 13. / أبو الخير، كتاب في الفلاحة، م س، ص 14.

محضة، من ضمنها ما ورد في صيغة إرشادات فلاحية موجهة للفلاح مفادها أنه إن أخذ (خرق حيض جارية عذراء أول ما تحيض فدفنت في حرث أو في وسط القرية سلم الله تعالى ذلك الحرث أو القرية من البرد)[1].

وعلى ضوء ما تقدم من أساليب خرافية، وطقوس احتفالية لوقاية وعلاج المحاصيل، اتضح أن معظم موسوعات أدب الفلاحة بالمغرب والأندلس في فترة الدراسة، لم تسلم من تسرب ثقافة التمائم والشعوذة والحروز والسحر، الشيء الذي يتنافى مع منطق العلم التجريبي الذي يبحث في العلاقة المنطقية بين الأسباب والنتائج، ذلك أن الكتب الشرقية القديمة التي نهل منها رواد أدب الفلاحة غلب على أصحابها بشهادة ابن خلدون[2] النظر (في النبات من جهة خواصه وروحانيته، ومشاكلتها لروحانيات الكواكب والهياكل ذلك كله في باب السحر).

وفي هذا الصدد اقتبس مؤلفو موسوعات أدب الفلاحة هذه المفاهيم دون نقد أو تمحيص (فترجموا من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة النبطية وحذفوا منه الكلام في الفن الآخر جملة (أي السحر))[3]، وهو ما تنفيه النصوص المتقدمة مما يجعل رأي ابن خلدون في النص الثاني مجانبا

(1) الطغنري، زهرة البستان، م س، ص 55 / وبالنسبة لبعض الإجراءات الخرافية التمويهية التي لا يقبلها كل ذي لب سليم، نجد الطغنري قد طعم هذه الخرافات بنص مقدس من القرآن ليضفي على الخرافات نوعا من المشروعية ويشفع لها عند عموم الناس المتدينين لتصبح سلوكات غير قابلة للنقض ما دامت محمية بالنص القطعي الذي لا صلة له به لا من قريب ولا من بعيد. هذا التوظيف المبني على لي أعناق النصوص الشرعية يتكره الدين ابتداء، ذلك أن البرد الطبيعي لوجود النص المقدس أصلا: يكمن في محاربة عقلية الخرافة والشعوذة والطلاسم، ومن قبيل هذا التوظيف ما ذكره الطغنري في سياق حفظ الحبوب دون أن تعرض التسوس (أن تأخذ) قطعة فخار غير مطبوخ وتكتب عليها سورة الذاريات وتوضع مع الزرع فإنه يسلم ولا تصيبه الآفة). نفسه، ص 22.

(2) المقدمة، م س، ص 548.

(3) نفسه، ص 548 – 549.

للصواب من جهة، ومن جهة أخرى تبقى مسألة حذف الأساطير والوصفات السحريـة مسألة نسبية تتفاوت من مصنف إلى آخـر، بحسب تفاوت نسبة النقل والاقتباس من مؤلفات أدب الفلاحة القديمة.

الفصل الرابع

أساليب استطلاع أحوال المناخ
خلال العصر الوسيط

أولاً: طرق استطلاع أحوال الطقس

عبر إنسان المغرب والأندلس عن عجزه في فهم وإدراك العلاقات السببية الناظمة للمؤثرات المناخية، وتمسك بجملة من الممارسات الغامضة لفك طلاسم وألغاز الاضطرابات المناخية سعيا منه لاتقاء مخاطرها. منها ارتباط العامة بالنظر في كتف الشاة لاستطلاع أخبار الأحوال الجوية، وتخصص بعض الدجالين والمشعوذين المعروفين بالمتوسمين[1] في تفسير ألغازه مدعين معرفة أسرار الطبيعة المكنونة في الكتف اعتمادا على تأويل نتوءات العظم الدالة على الاضطرابات المناخية القصوى، ومن تجليات تأويلات المتوسمين ادعاؤهم أنك (إن رأيت تحت الغضروف الكبير –وهو رأس الكتف– البياض وهو موضع المطر والبحر. فإن كان في ذلك الموضع سحابة سوداء فيكون أمطارا وهواء، فإن اعترضها صفرة فيكثر البرد، وإن رأيت ذلك الموضع صافيا أبيض فذلك دليل على القحط، وإن رأيت في ذلك الموضع خدوشة فدليل على الجدب، فإن أظلم ظهر فيه نتوء مثل الأضراس (...) فذلك مطر وبركة وسنة طيبة)[2].

(1) الأنصاري السبتي، الزيرابجة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم (د 2151) ص 148.
(2) التاودي، رسالة في علم الكتف، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم (1288) ورقة 225 أ – 225 ب / ويبين الأنصاري طريقة قراءة وتأويل رموز الكتف فقال: يقيم المتوسم ذلك اللوح في الشمس أو في الضوء الباهر وينظر في رشاش الدم المحتقن داخل اللوح (...) وقد علم جهاته المقسومة على الجهات الأربع فعرضه من الأسفل جهة الشمال، ودقيقه العظم المستدير لجهة الجنوب وجانباه لجهة الشرق والغرب وعظمه القائم المحدد لجهة الجبال والنجود وبسيطه الأملس بجهة السهول وما بين بسيطه وحد العظم المحدد بجهة الأودية والفجاج فإذا رأيا (كذا) ذلك الرشاش من الدم مبثوثا استدل به على سكون الجيوش وهدو الجبال وما حوله من الأصقاع القريبة (...) فإن رأيا (كذا) أحد الجيوش مبثوثا والآخر متصلا طرفه بطرفه دل على هزيمة الجيوش المبثوثة في جهته المعلومة ومثل ذلك يستدل بها على الزروع والغلات فالمجموع زكي جيد في جهته والمبثوث ناقص (...) تمس الناظر ينظر ما في فصل عظم الكتف نفسه ص 148 – 149.

إن التأويل التقريري لرموز الكتف، يقصد به شد انتباه الناس عموما والفلاحين خصوصا وتبديد مخاوفهم، وكأن حدس المتوسمين صار يقينا وأن لا مجال لهامش الخطأ في تأويلاتهم.

وبالتالي فإن المتأمل في قراءة المتوسم للكتف يكتشف أن نسبة تردد عبارات اعتدال المناخ في أول النص وآخره (أمطار – هواء / مطر – بركة) تعادل نسبة التنبؤ بحدوث الاضطرابات الجوية (البرد – القحط – الجدب). وبالتالي فدهاء المتوسم يتجلى في إبقاء احتمال حصول الآفات والخصب على قدم المساواة في ذهن المتلقي حفاظا على هالته لدى شرائح واسعة من العوام.

هذه الهالة سخرها مهدي الموحدين في البداية لاستقطاب قاعدة عريضة من العامة موظفا موهبته في النظر في عظم الكتف حتى ذاع صيته و(اشتهر بتفسير رموزه)[1]، التي طغت عليها التكهنات الجوية لإرغامهم على الإذعان لدعوته محاكاة منه لدور الاضطرابات المناخية في إخضاعهم واستسلامهم.

وبالمثل اشتهرت بطون بني مرين بالنظر في الكتف لأن انتجاعها بقطعان المواشي إبان موسمي الشتاء والصيف جعلها أشد حرصا من غيرها لترقب أحوال الطقس لترتيب وجهتها المستقبلية، ومن ثم فلا غرو أن يشهد لها (بمعرفة بارعة وحذق وكياسة ويد جيدة في علم الكتف، ولا يدرى أن أحدا من الأمم أعلم من زناتة بعلم الكتف)[2].

إن الاهتمام المتزايد بالنظر في عظم الكتف نتج عنه خلخلة في مرتكز الأمة

(1) بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، م س، ص 119.
(2) الإدريسي، وصف إفريقيا والشمالية الصحراوية، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بريس، الجزائر، 1957م، ص 61.

العقدي، وأضحى الارتباط بأسراره مرآة عاكسة لتقدير حجم الصعوبات التي واجهها رعايا المغرب والأندلس بحكم طول فترات الجفاف، وتأخر الأمطار، وبوار الأراضي، ونفوق الحيوانات، الأمر الذي هدد الإنسان في مصادر رزقه وموارد عيشه. فكان نتيجة لذلك يتشوف إلى كل منجم أو كاهن يجيد تأويل نتوءات عظم الكتف، الشيء الذي انعكس سلبا على الثقافة العالمة بالعدوتين، تجلى ذلك في كثرة النوازل التي يستشف منها عمق حيرة الإنسان بين الالتزام برأي الشرع في المسألة، وبين تجاوزه والركون إلى المتوسم الذي يزعم الإخبار بالخصب والقحط، والبرد والسيول وغيرها من الاضطرابات المرتقبة، التي تشكل مصدر قلقه الدائم بدوام تردد الآفات المناخية.

وهكذا أفرزت الاستفسارات بشأن عظم الكتف في الفقه والنوازل، تضاربا صارخا بين علماء المغرب والأندلس، ففي الوقت الذي صنفه الأوائل في خانة الحرام على أساس أن الاشتغال به (اشتغال بعلم الغيبيات الذي هو مفتاح كل فتنة في الدنيا والدين)[1]، اعتبره القرطبي جائزا لا يتعلق بالغيب وإنما هو (ظن فقط فليس في الشرع ما يدل على منعه)[2]. أما غيره فلم يستسغ جواز ذلك، موضحا أن (النظر في الكتف محرم للسائل والمسؤول وقادح في شهادتهما وإمامتهما وعدالتهما)[3]. في حين صنفه الجزولي في باب الممنوع فقط[4].

(1) ابن جلون المدني، رسالة في النهي عن الاشتغال بالكيمياء والتنجيم والسحر، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 12434 ورقة 182 ب.

(2) (وذلك استنادا إلى ما جاء في الحديث: (أن الملائكة لعنت القوة عن الربيع حين ألقى موسى الألواح) لذلك جاز النظر فيها). الداودي، رسالة في علم الكتف، م س، ورقة 221 أ. / الأنصاري، الزبرجدة، م س، ص 148. / المعيار المعرب، م س، ج 3، ص 189.

(3) ابن جلون المدني، رسالة في النهي عن الاشتغال بالكيمياء، م س، ورقة 180 أ.

(4) نفسه.

هذا الاضطراب في فتاوى العلماء، زاد من محنة إنسان المغرب والأندلس، وعمق من حيرته فتمرد على واقعه تحت تأثير قوة ضغط المؤثرات المناخية الدورية على وجدانه وظروف عيشه. فجرب كل الطقوس سعيا منه لخلق نوع من التوازن والتعايش بينه وبين الظروف الطبيعية، ولو بواسطة ممارسات لا يربط بينها منطق ولا تقوم على خصائص علمية واضحة.

ثانياً: أساليب استشراف أحوال المناخ

إلى جانب اهتمام المتوسمين بتفسير ألغاز عظم الكتف، تطير إنسان المغرب والأندلس بشجر النارنج الذي كان مرادفا في مخياله لكارثة مدمرة، فكان ذلك سببا في عزوف المزارعين عن غرسه، لاسيما وأنه لا يدرك أن شجر النارنج يسهم في التخفيف من نسبة تبخر مياه السواقي والصهاريج[1]. أسلوب علمي لترشيد استغلال المياه والتقليل من خطورة الجفاف طمسته ذهنية التفكير الخرافي وطقوس الشعوذة. وقد صدق صاحب المقدمة[2] حين اعتبر ذيوع هذه الممارسات البدائية مؤشرات على خراب العمران بقوله: (إن المدينة إذا كثر فيها غرس النارنج تأذنت بالخراب، حتى إن كثيرا من العامة يتحامى غرس النارنج بالدور تطيرا به (...) وهذا الطير الذي يخشى معه هلاك المصر وخرابه).

وبالمثل تعاطى الناس لضرب خط الرمل والقرعة والفأل، رغم المحاذير الشرعية بشأنها[3] ظنا منهم أنها تطرد العوامل المسببة للجوائح، إلا أن

(1) المقري، نفح الطيب، م س، ج 3، ص 497. / عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، م س، ص 64.

(2) ابن خلدون، م س، ص 397 - 398.

(3) قال ابن رشد: (من تطير فقد أثم) ثم أضاف معلقا على استفحال هذه الظاهرة في العدوتين بقوله: (وهذه العوائد الرديئة كلها وما شاكلها إنما سببها ارتكاب ما نهى عنه عمر بن الخطاب من أن أهل

الناس لم يجدوا في ممارسة هذه العوائد أي غضاضة بما فيهم أحد أئمة المساجد الذي اشتغل بضرب خط الرمل، مما أثار حفيظة من يؤمهم فتم تأخيره عن الإمامة، لأن ضرب الخط غير جائز وقادح في إمامته[1].

كما ساد الاعتقاد في الفأل ودلالته على الخصب والنماء. وفي هذا الصدد كان للبصل البري عند الأندلسيين ويدعى أيضا بصل الفأر، (سمة للعام الطيب يتفاءلون بكثرة زهره)[2]. ومن السلوكات التي استأثرت بها النساء للتفاؤل بخصب العام، أنهن كن تشترين (اللبن في أول ليلة من شهر محرم وهي أول ليلة من السنة، ويزعمن أن ذلك تفاؤلا بأن تكون سنتهم كلها عليهم بيضاء وهذا منهم بدعة وباطل) على حد قول ابن الحاج[3]. أما حقيقة (التفاؤل في الشرع هو الذي لا يقصده الإنسان حتى يسمعه ابتداء)[4].

هذه الممارسات المشبعة بالخرافة وإن ظهر أنها لصيقة بالعوام الذين فسروا الظواهر من حولهم استنادا إلى قوى خارقة، غير أنها وجدت طريقها إلى فئة الخاصة في مجتمع المغرب والأندلس بصرف النظر عن مستواها الفكري وموقعها في التراتب الاجتماعي.

النمة لايجاوزون المليحين). ابن الحاج، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1972م، ج 1 ص 274.

(1) الونشريسي، المعيار المعرب، م س، ج 1 ص 133.

(2) الإشبيلي أبو الخير، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق وتقديم محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990م، ق 2، رقم 1736 ص 580.

(3) المدخل، م س، ج 1 ص 271.

(4) نفسه، ص 272.

ثالثاً: الكهانة والمناخ

اهتم الأمراء والخلفاء بالمشعوذين والمنجمين بحيث كانوا لا يقطعون أمرا من أمورهم العامة ولا الخاصة إلا بأخذ طالع الوقت، واستشراف النتائج رغم علمهم المسبق بأن تلك التخريجات تدور في فلك التخمين فأحيانا تصيب بالعرض وأحيانا كثيرة يظهر فشلها. مما كان يؤثر في سلوكات خاصة المجتمع. وكثيرا ما سخروا ممن حولهم من منتقدي النظر في النجوم والقرانات. مع كل هذا كانت المؤثرات المناخية تحتل حيزا مهما في اهتماماتهم وتخطيط حواضر سلطانهم، ونصب محلاتهم وفق الأساليب الاستطلاعية التنجيمية الوهمية البعيدة عن العلم.

وفي هذا المنحى تعرضت الأندلس لقحط شديد في عهد الوزير ابن جهور (وكان القحط قد تمادى واغتم الناس لذلك، وتحدث المنجمون بتأخير الغيث مدة ليست بالقصيرة، وكان عند الوزير المنجم ابن عزراء وجماعة من أصحابه، وقد أقاموا الطالع وعدلوا وقضوا بتأخير المطر شهرا (قال: أبو عمر الأندلسي) فقلت للوزير إن هذا من أمور الله الغيبية وأرجو أن يكذبهم الله بفضله. ثم خرجت عنه وأتيت داري فجاء أول الليل والسماء قد غيمت ونمت ساعة فما أيقظني إلا نزول الماء)[1].

(1) قال أبو عمر أحمد الأندلسي فقمت وقربت مني المصباح ودعوت بالدواة والقلم فما رفعت يدي حتى صنعت لي هذه الأبيات ثم سابقت بها الوزير وهي:

مالقدر الله وهو الغالب
ليس الذي يحسبه الحاسب
قل لابن عزراء السخيف النجمي
أزرى عليك الكوكب الثاقب
وقل لعباس وأشباهه
كيف ترى قولكم الكاذب

إن اعتماد علية القوم على حوادث وخرافات لا يربطها بينها منطق علمي ولا تنظمها علاقات سببية، أفشلت يقظة بعض النخب المثقفة المشبعة بالعقيدة في ثني الوزير عن رأيه حيث أمر هذا الأخير بتعديل الطالع لمعرفة انجلاء القحط من عدمه، الشيء الذي يعكس أزمة ضمير المجتمع برمته عامة وخاصة مع بعض الاستثناءات التي لا تغير شيئا من المناخ الثقافي العام.

هذه الأزمة استفحلت بين شرائح عريضة بالمغرب والأندلس على الرغم من أن الواقع التاريخي أثبت زيف هذه التكهنات التي تصيب بالصدفة ويكون الخطأ حليفها في الغالب، مصداق ذلك ما أكده ابن خلدون[1] بقوله: (فقد بان لك بطلان هذه الصناعة، وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني بما تبعث في عقائد العوام من الفساد إذا اتفق الصدق من أحكامها في بعض الأحايين اتفاقا لا يرجع

خالفتم كيوان في قوسه
ومزتم في ثوبه الكاذب
فكلكم يكذب في علمه وعلمكم
في أصله كاذب
ما أنتم بشيء ولا علمكم
قد ضعف المطلوب والطالب
تحاولون الله في حكمه
والله لا يغلبه غالب
فضربت الحبر الذي ماله
في فهمه ند ولا صاحب
قد أشهد الله على نفسي
بأني من جهلكم تائب

ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401 هـ / 1981 م، ص، 442 - 443.

(1) المقدمة، م س، ص 603.

إلى تعليل ولا تحقيق، فيلهج بذلك من لا معرفة له، ويظن اطراد الصدق في سائر أحكامها وليس كذلك فيقع في رد الأشياء إلى غير خالقها (...) فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول). وعلى هذا الأساس صب أبو عمر المؤرخ جام نقده على ابن عزراء المنجم ومن صدقه بما فيهم الوزير ابن جهور.

ومن بين إخفاقات استطلاعات المنجمين في هذا الشأن تنبؤهم بالأمراض والأوبئة وإشاعة أن سلطان المهدية علي بن يحيى بن تميم سيموت فيها بعد مضي عشرة أيام من شهر رمضان سنة 511هـ/1117م، غير أنه في الوقت الذي انتظر فيه المنجمون حصول ما توقعوه تمكن علي بن يحيى من طرد النورمان من جزيرة جربة، فكانت مناسبة لبعض الأدباء لشن حملة على مدعي الإطلاع على كنه الغيب، مناصرين بذلك سلطان العلم وإعادة الاعتبار لمنهجه في رصد الظواهر الكونية على النحو الذي يهتم به الفلكيون، فكانت هذه الإخفاقات مناسبة للحط من هجانة الفكر التنجومي الخرافي[1].

(1) قال ابن حمديس:

وأين الذي عد المنجم كونه
إذا مر للصوام عشر من الشهر
وما قرع الأسماع بالخبر الذي
أبى الله إلا أن يكذب بالخبر
غدا الزيج ربما في تناقض علمه
وضلله عرفا أحال على نكر
فهلا رأى قطعا عليه بسيفه
وشيئا يدعم كان بالكيد والمكر
وأن عليا يقتضي القضب التي
يرد بها حد العداة إلى قصر

ديوان ابن حمديس، ص 224 / ذكر ابن عذاري أن ذلك حدث عام 510هـ / 1116م البيان المغرب م س ج4، ص 62.

إذا كانت الآفات المناخية قد ألقت بشرائح واسعة من العوام في دوامة الممارسات الاستطلاعية الخرافية العارية من كل منطق علمي، فإنه ليس من الإنصاف حصر هذه الذهنية في صفوف هذه الشريحة فقط كما ذهب إلى ذلك النباهي[1] بقوله: (وإنما وضعت كتب النجوم ليتمعش بها الجاهلون من العامة ولا حقيقة لها). وإنما استأثر بها الخاصة من أمراء وخلفاء ووزراء وولاة وعلماء أيضا[2]، وأحاطوا ممارساتهم السحرية وطقوسهم التنجيمية بسرية تامة خوفا مما يترتب عن إعلانها من مشاكل دينية واضطرابات اجتماعية يتعذر إخمادها في حال اندلاعها.

صحيح أن العامة انشغلت بخرافات الدجل والشعوذة والتنجيم، وقد يكون ذلك بتخطيط مبيت من قبل السلطة لامتصاص غضبهم وتحريفه عن وجهته في المطالبة بحقوقهم، لأن المخزن خير من يعلم مدى سخطهم[3] على تردي الأوضاع التي أسهمت فيها المؤثرات المناخية القصوى بنصيب وافر، ومن ثم إقحامهم في بحر طقوس مفرغة في سياق البحث عن التوازن الغذائي، لاسيما وأن العامة إذا اشتد بها النوائب تتجه إلى تعليله بالفواحش والموبقات التي تقترفها النخب الحاكمة، ومن ثمة غالبا ما ربطت الرعية بين ما ينزل بها من كوارث وما عليه ولاتها من ظلم، ومما رددوه في هذا الصدد قولهم (إذا جار السلطان قحط المطر)[4].

(1) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الأندلس)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 5، 1403هـ / 1983م، ص 37.

(2) وأكثر ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والمولعين في أمد دولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه. ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 351.

(3) المقري، نفح الطيب، م س، ج 1 ص 221.

(4) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1397هـ / 1977م، ج 2، ص 60.

وفي خضم التضييق المعلن ضد كل من ثبت اشتغاله بالأصول والمنطق والفلسفة، كانت مجالس الخاصة حافلة بالمناظرات وتحقيق المساقط والمطالع التنجيمية لكشف الأسرار واستطلاع أخبار الاضطرابات المناخية والأوبئة فضلا عن التكهن بالسعد أو النحس[1].

كما حرصت فئة الخاصة على سرية ممارساتها لأعمال الكهانة والتنجيم احترازا من إثارة العامة، وإذا ما كشف أمرها فإنها تضحي بمن اتهم من المتنجمين وأعوانهم ويبالغ المسؤولون في نكايته لتأليف قلوب سواد الرعايا. ذلك أن كل العلوم عند الأندلسيين كان لها حظ واعتناء (إلا الفلسفة والتنجيم (كان) لهما حظ عظيم عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت)[2].

وكان للاضطرابات المناخية اعتبار بارز في تخطيط الحواضر السلطانية، بحيث حرص الأمراء والخلفاء على إحضار المتجمين ومعدلي القرانات لاستشراف سعد أو نحس المكان ومدى تعرضه للكوارث المناخية أو سلامته منها، إضافة إلى ادعاء الإخبار بوجود الماء من عدمه، والتكهن بانتصار جيش أو موت أمير. بعد هذا التشخيص القائم على ادعاءات المعدلين يؤمر المهندسون والبناؤون بمباشرة أعمالهم، وذلك تماما مثل ما حصل للمتجمين في غرناطة الذين أكدوا (أن طالعها الذي اختطت

(1) ابن خلدون، المقدمة، م س، ص 350 – 351.

(2) المقري، نفح الطيب، م س، ج 1، ص 221.

به السرطان)[1]. وحسب تأويلهم فإن ذلك (يدل في التشريق على نقص المياه، وغلو الأسعار (...) ومن تحت الشعاع يدل على موت الأشراف وفساد المغرب، وفي الاحتراق يدل على الزلازل والأمطار)[2]. وحسب هذا الفهم فالمغرب الأقصى ينتمي (إلى الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام المريخية)[3] على حد زعمهم.

وكأني بالقلقشندي لا يكترث بتحقيقات المتجمين حين اعتبروا المغرب خاضعا في تحولاته المناخية للأبراج التي يستقر فيها المريخ، وآية ذلك حسب ادعاءاتهم أنه (متى رجع المريخ في برج طالع دولته أو عاشرها أحدث فيها فسادا (...) وتؤخذ منه صورة الأثر اللاحق بالقليل كالجوع والوباء)[4].

والجدير بالملاحظة أنني عثرت في بعض المصادر على أمثلة لنماذج من الخاصة وأكابر مخزن المغرب والأندلس ممن تعاطوا للدجل والكهانة، منهم مهدي الموحدين محمد بن تومرت الذي وصف بأنه (كان حاذقا في ضرب (خط) الرمل)[5]. وكشف المراكشي[6]

(1) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه عنان محمد عبد الله، الناشر مكتبة الخانجي، ط 1421هـ – 2001م، مجلد 1 ص 94.
(2) الأنطاكي داود، تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب (وبهامشه في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة)، المكتبة والمطبعة العثمانية المصرية، مصححة هذه النسخة الأميرية المطبوعة عام 1282هـ، ج 2 ص 23.
(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ / 1987م، ج 5 ص 147.
(4) ابن هيدور، الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط، رقم (د 291) ضمن مجموع، ص 237.
(5) العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدسي، القاهرة، 1350هـ ج 4 ص 71.
(6) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، البيضاء، 1978م، ص 127 – 128.

أنه تعاطى للأحكام التنجيمية أثناء زيارته للمشرق، ونهل ذلك من (علم المنجمين وجفور من بعض خزائن بني العباس).

كما كانت سياسة الموحدين الأمنية قائمة في قسط منها على أحكام المنجمين، نقتصر منها على نموذج المجازر الدموية التي ارتكبوها بحق الأندلسيين اعتمادا على خرافات المنجمين والمشعوذين، مفادها أن دولتهم في الأندلس سينقضها من وافق اسمه محمد واسم أبيه يوسف، فتطلع الرعايا لهذا المنقذ من الآفات والأزمات المتلاحقة التي أخذ بعضها برقاب بعض[1].

كما كان لأمراء بني مرين وسلاطينهم منجمون، ثبت أنهم كانوا لا يقطعون أمرا إلا بمشورتهم سواء في أمر السلم أو الحرب. وفي هذا الصدد أورد ابن عذاري[2] أنه في أعقاب أحداث 645هـ/1247م المواكبة لخروج أبي الحسن السعيد المريني لمنازلة صاحب تلمسان أبو يحيى يغمراسن فوصل في مسيره على رأس قواته إلى تانسيفت، (فنزل بمحلته عليها وكان منجمه يرى في علمه ونجمه حمرات كثيرة تدل على وقيعة كبيرة فأمر ببناء المصلى وعيد هناك عيد الأضحى وكثرت الدماء في المحلة من الضحايا، فقال المنجم هذه الحمرة التي ظهرت لك والمنايا فانبسطت آماله وانشرحت للحركة حاله).

إن ملامح الذهنية الخرافية القائمة على هواجس الخوف من الأزمات

(1) كان الناس يستشعرون ذلك ويرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف، وهي العلة المحركة لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي، وهو الذي تمكن صاحب الأندلس بعد انقراض دولة الموحدين (...) وكان خروجه من مرسية تاسع رجب (625هـ / 1228م) لمحمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر وجرى على الناس بسبب ذلك شخصان من أهل جيان. ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، حققه وكتب له أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني تحت عنوان (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط وهو القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964، ص 278. / المقري، نفح الطيب، م س، ج 4 ص 182.
(2) البيان المغرب، ق م، م س، ص 395 – 396.

والآفات الطبيعية والمصير المجهول ظلت حاضرة في السلوكات الخاصة بالمغرب والأندلس على امتداد تاريخ العصر الوسيط. ومن بين قسمات هذه الذهنية أن يعقوب بن عبد الحق المريني لما عزم على بناء فاس الجديد لتكون دار قراره وحضرة ملكه أحاط نفسه بالمنجمين، وبناء على قرارهم (شرع في تأسيسها لثالث شوال 674هـ/1275م، وجمع الأيدي عليها وحشد الصناع والفعلة لبنائها، وأحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب فاعتاموا في الطوالع النجومية ما يرضون أثره، ورصدوا أوانه وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك المقدمان في الصناعة)[1].

ومن مضاعفات هذه الممارسات التي انتقلت إلى بعض أفراد النخب المثقفة، أن قال بعض المؤرخين[2] في حق مدينة فاس مستحضرين ما تم في تخطيطها وبنائها من شعوذة وطقوس تنجيمية ما يفيد أنها حسب زعمه خالية من الأمراض القاتلة: (ومن بركتها وسعادتها (...) ويمن طالعها أنها لا يموت فيها خليفة، وأنها لم يخرج منها جيش إلا ظفر، ولم يعقد قط بها لواء إلا نصر). وهذا ادعاء بين الواقع التاريخي زيفه ليس في المغرب والأندلس فقط ولكن في مواطن متعددة من المشرق الإسلامي كذلك، في إطار وحدة السلوك الخرافي والطقوس التي تعكس وحدة الهواجس من المصير الغامض[3].

(1) ابن خلدون، العبر، م س، ج 7، ص 230. / الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م س، ج 3، ص 44.
(2) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، م س، ص 161. / الناصري، الاستقصا، م س، ج 3، ص 44.
(3) لما أراد الخليفة المنصور العباسي بناء مدينة بغداد استشار المنجمين فبشروه بكثرة عمارتها كما زعموا أنه لا يموت فيها خليفة. وعلى سبيل المثال لا الحصر توفي في بغداد الخليفة المقتدر بالله الذي اغتيل ببغداد عام 320هـ كما قتل بها المستعصم أيضا سنة 656هـ / 1258م. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، م س، ص 67 – 68.

رابعاً: جوانب من طقوس المنجمين في تفسير الاضطرابات الجوية

ساد الاعتقاد بتأثير النجوم في حصول الاضطرابات المناخية الصعبة، فاختصت المناطق القاحلة بالمغرب والأندلس بطقوس سحرية قائمة على التخمين والرجم بالغيب[1]، مع جزم المعتقدين فيها أن ما يحدث من كوارث طبيعية لها صلة مباشرة بطبائع وحركات النجوم والأجرام السماوية، وهذا ما اهتم به علم الفلك القائم على قواعد علمية تحاكي ما يعرف اليوم بالأرصاد الجوية.

فإذا كانت هذه الأخيرة قائمة على منطق علمي واضح الارتباط، فإن المشتغلين بالتنجيم والعرافة والكهانة يسعون إلى معرفة الغيب بواسطة طقوس تخمينية (ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم، وربما يكون بخلاف، ومجرد الغيم ليس كافيا في مجيء المطر، وبقية الأسباب لا تدري. وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتمادا على ما ألفه من العادة في الرياح، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ)[2].

ومن المعتقدات التي شاعت بين العوام نسبة الأمطار إلى سقوط نجم من النجوم، وهو معتقد قديم قوض الإسلام دعائمه في وقت مبكر في شبه

(1) قال الغزالي: (إن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا، فالحكم به حكم بجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم). الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 – 1409هـ / 1989م، ج 1، ص 354.
(2) نفسه.

الجزيرة العربية. غير أنه عاد للظهور أثناء مراحل الوهن الحضاري للأمة المتزامن مع الأزمات ومضاعفات المؤثرات المناخية خلال الحقبة المدروسة. وهو المعروف عند الخاصة والعامة بالأنواء[1].

فصار مـن قبيل المسلمات لدى عوام المغـرب والأندلس أنه لابد للنجوم (أن يكـون مـع أكثرها نـوء من مطـر أو ريـاح أو عواصف وشبههـا فمنهم مـن يجعلـه لذلـك الساقـط، ومنهم مـن يجعله للطالـع لأنه هو الـذي ناء أي نقص، فينسبون المطر إليه)[2].

إن هذا الارتبـاط بالأحكام التنجيمية يعكس بقايـا الجاهلية والمؤثرات الوثنية البربرية والعربية الضاربة في عمق تاريخ العدوتين. فإذا كان موقف الشـرع الإسلامـي واضحا مـن المعتقـدات الوثنية وخاصة مـا ارتبط منها بالاعتقاد في تأثـير النجوم في حدوث الاضطرابات وسقوط الأمطار[3]، فإن المتتبع لسلوك إنسان العدوتين إبان تصاعد المؤثرات المناخية، يلحظ سيادة المعتقـدات الخرافيـة السحريـة التي وجـدت في المغـرب والأندلس (مجالا خصبـا لرعايتها وتثبيتها في النفوس، وهي بطبيعتها بيئة تساعد على تغذية تخيل الإنسان لما وراء الكون)[4].

ومـن بين المعتقـدات الدفينة التي تمثل انعكاسا لـدور المؤثرات المناخية

(1) قال القلقشندي: النوء عند العرب سقوط نجم من نجوم المنازل الثمانية والعشرين وهو مغيبها مع طلوع الفجر وطلوع مقابله بالمشرق المراقبة للطلوع م س، ص: 1/5.

(2) نفسه.

(3) قال ابن خلدون: والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله إن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، وفي قوله (صلى الله عليه وسلم) أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب. الحديث الصحيح. المقدمة م س، ص: 603.

(4) عبد الله الطيب في الفكر الإسلامي والأدب العربي، م س، ج 1 ص: 347.

في حيـاة إنسان العدوتين جزمه في تأثير نجم سهيل في حدوث الفيضانات، ومـوت الحيوانات، ووقوع الأمراض والأوبئة، وأحيانا وقع في شراك الاعتقاد بالأساطـير الخرافيـة حتى بالنسبـة لبعض أفراد النخبـة المثقفة. ذلك أن التجـاني[1] قبـل بعضها وشكك في بعضهـا الآخر، معطـلا بذلك تمحيصه المعتـاد وعقليته النقدية اليقظـة، بقوله: (إنما الغريب مـن أمر سهيل وهو صحيـح مشاهد أن الإبل ساعـة طلوعه تستديره فلا تـزال مولية بوجوهها عنه ما دام طالعا، وإن كانت حين طلوعه مستقبلة لجهته استدارت في الحين فولتـه أدبارهـا، وهذا أمر شائـع مستفيض لم أر من أهـل الإبل إلا مقرا به مصدقـا له (...) وكانوا يزعمون أن طلوعـه يسبب موت الإبل ووقوع الوباء فيهـا، فلأجـل ذلك تكرهه وتستدبـره (...) ولهذا قـال ساجعهم: إذا طلع سهيل برد الليل وخيف السيل وامتنع القيل وكان (لـ) لام الحوار الويل).

ومـمـا زاد من ارتبـاط الفئات الدنيـا بالمشعوذيـن والدجالين انخراط النخبـة المثقفة عـن قصد أو عن غير قصـد في تشجيع الذهنيـة البسيطة الساذجة من خلال التنظير والتقعيد للفكر التنجيمي، فاتسعت بذلك دائرة التعليل الخرافي في صفوف العوام، وكانت (سذاجتهم تجعلهم يصدقون كل

(1) لأم الحوار صغير الناقة قبل أن يفصل عنها قال التجاني: إنما كان هذا الويل لفراقها له، والقيل إنما من القائلة وهي نومة الظهيرة، أو من الشرب في ذلك الوقت (...) وكانت العرب تزعم أن سهيلا كان رجلا يعشر الناس أي يأخذ عشر أموالهم، وكذلك العشر وأنهما كانا متكاسين على تجار البر والبحر ظلمة فمسخهما الله عقوبة لهما، وجعل أحدهما نجما في السماء والآخر حيوانا في الأرض (...) وذلك من خرافات الأعراب. رحلة التجاني، م س، ص: 62 – 63 – 64. إن المنهج العلمي النقدي الذي تحلى به التجاني في تقويض النسق الأسطوري للخرافة التي اعتمدها الأعراب في مسألة مسخ جباة العشر، لم تكن آلياته حاضرة في وصفه لسلوك إنسان العدوتين مع نجم سهيل أصلا، وإن كان الاضطراب والذهول باديين من خطابه من خلال عدم اقتناعه بالخرافات التي نسجت حوله، إلا أنه لم يصدر موقفا صريحا منها كعادته مع غيرها. / جعل سهيل من أعمال مالقة وبه سمي الجبل (نفسه ص: 5/3) ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب. ابن الخطيب، معيار الاختيار، م س، ص: 52.

شيء مهما كان مستحيلا. لأن العامة تجهل نواميس الطبيعة جهلا تاما)[1].

وشاع نتيجة لذلك ربط التحولات المناخية المعتدلة والقصوى بمساقط النجوم ومطالعها والاستدلال (بسير زحل في المنازل الثمانية والعشرون)[2].

وفي هذا الصدد أكد ابن هيدور[3] أن (المعتبر في الطوفانات قران الثقيلين في رأس الحمل ويقال له القران الأكبر (...) والمعتبر في الأمطار كينونة الكواكب الممطرة في البروج الممطرة (...) والمعتبر في الأرياح (كذا) والرعد والبرق والزلازل والصواعق كوكب عطارد).

أضحت الذهنية الخرافية سمة غالبة على ثقافة المجتمع في فترات الانحطاط. وصار الإنذار بتكهنات المتجمين بشأن حدوث الاضطرابات المناخية المتعددة لغة التواصل بين الخاصة والعامة. وعلى تخمينات روادها كانت تزرع بذور التواكل والعجز التي تعد العامل الأساس في استفحال الأزمات. وذلك حين انقبض الناس عن العمل جراء وشايات المشعوذين بقرب حلول الجفاف والجوع والصواعق والأوبئة والزلازل. من ذلك أيضا ما ورد في رسالة لابن العذراء إلى صديق له يوصيه وهو من دعاة التنجيم بقوله: (إياك يا بن أخي أن تغفل عن البرج الذي استقر فيه زحل من البروج الإثنا عشر في جميع الأعوام. واعلم أنه (...) إذا حل بالسنبلة شبع أهل الأرض كلهم (...) وإذا حل بالميزان غلا الطعام (...) وتكثر السيول (...) وإذا حل بالعقرب يقل المطر في الربيع (...) وإذا حل بالجدي كثر الخصب في المشرق والمغرب

(1) الوزان: وصف إفريقيا بيروت، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983م ج 1 ص 70.

(2) مؤلف مجهول، محيط الأسرار، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم (د 2151) ص 41، ضمن مجموع.

(3) الاختيارات النظرية في الأحكام النجومية، م س، ص 236.

ويصلح بالأندلس (..) وإذا حل بالحوت هان الطعام وكثر بالأندلس)[1].

خلاصة القول إن تردد أخبار المؤثرات المناخية في مصنفات التراث المغربي الأندلسي خلال العصر الوسيط، يعكس مستوى التأثير المارس على القطاعات الإنتاجية والاقتصادية. وفي طليعتها المجال الفلاحي الذي تضرر من القحوط والجفاف والجراد وغيرها من أصناف الجوائح الأخرى.

وظل إنسان المغرب والأندلس بوسائله التقليدية المحدودة، عاجزا عن مواجهة الاضطرابات المناخية القصوى، فظهرت نتيجة لذلك بعض الطقوس المشبعة بثقافة الشعوذة والسحر. والخرافة والكهانة التي اكتسحت شرائح واسعة من العامة والخاصة على حد سواء.

(1) مؤلف مجهول، رسالة ابن العذراء، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم (د 2151) ص 42 - 43 - 44 ضمن مجموع.

خاتمة

أسهمت دراسة موضوع (المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط) في كشف التفاعل بين المؤثرات المناخية والإفرازات السلوكية والتمثلات الذهنية لإنسان المغرب والأندلس خلال المرحلة المعنية بالدراسة.

وفي هذا الصدد تصدت الدراسة إلى إبراز أثر المناخ في ذيوع طقوس متنوعة، كان من مظاهرها اتساع دائرة التواكل والتقاعس والتقليد على حساب قواعد التفكر والتأمل والإبداع الخلاق.

كما جرى تتبع أثر المناخ في صياغة ذهنيات خرافية وتشكيل طقوس سحرية ألقى عليها إنسان المغرب والأندلس عجزه عن إدراك العلاقات السببية المؤثرة في حدوث التحولات القصوى للمناخ، ساعد على ذلك تواضع مستوى الوعي المرتبط بانحسار مجالات التعليم وفقر مواده ومقرراته، فوجد العوام في المؤثرات المناخية القصوى مرتعا لسيادة الفكر الخرافي والاعتقاد في طقوس الكهان والسحرة والمنجمين.

وتبين من خلال الاستقراء التاريخي للنصوص، أن هذه الطقوس والذهنيات الخرافية المرتبطة بها لم تكن سوى واجهة تعبيرية عن واقع مثخن بالأزمات الجاثمة على موارد ومصادر عيش إنسان المغرب والأندلس. كما أفرز الضغط المتزايد للمضاعفات السلبية للمناخ أنماط تفكير بسيطة لها القابلية لتصديق الخرافات. وفي هذا المنحى لا يمكن استثناء الأسر الحاكمة في تطعيم الأنماط المذكورة –عن قصد أو عن غير قصد– من خلال اتخاذ السلاطين والخلفاء والأمراء للمنجمين حرصا منهم على معرفة أسرار الغيب، وكشف الطالع وتأويل القرانات النجومية.

ونتيجة لذلك كشفت الدراسة سيادة طقوس سحرية متعددة: من زجر للطير وقراءة الكتف وخط الرمل ورقى وتمائم، واتخاذ طلاسم زعموا لها القدرة على حراسة الإنسان والمكان ودرء الجوائح والنوائب عنهما.

كما أبرز التحليل أن اتساع نطاق هذه الذهنيات يعود إلى التمثل الذي ترسخ في مخيال العامة والخاصة من أن المؤثرات المناخية المدمرة تحيل دلالاتها إلى ما ترسخ في مخزونهم الاعتقادي من مؤشرات تتجه حتما حسب تأويلهم إلى ألوان العذاب والدمار الذي يستهدف الإنسان والمجال على حد سواء.

2 - المصادر:

* ابن أبي زرع (علي بن محمد الفاسي ت: 741هـ/1341م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1420هـ/1999م.

* الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

* الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي ت: 548هـ/1153م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1414هـ /1994م.

* وصف إفريقيا الشمالية الصحراوية، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بريس، الجزائر، 1957م.

* ابن الأزرق (أبو عبد الله بن الأزرق ت: 896هـ/1590م): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1397هـ- 1977م.

* الإشبيلي (أبو الخير ت: 8/499هـ/1105م): عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق وتقديم: محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990م.

* كتاب في الفلاحة، نشره التهامي الناصري الجعفري، فاس، ط1358،1هـ.

* الأنصاري (محمد بن القاسم بن محمد السبتي، فرغ من تأليفه عام 825هـ/1422م): اختصار الأخبار عما كان بثغر

سيرة ذاتية

المؤلف: عبد الهادي البياض

أستاذ باحث.

من إصداراته:

الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/12-14م)- دار الطليعة- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى 2008م

التصوف السني في تاريخ المغرب نسق نموذجي للوسطية والاعتدال- منشورات الزمن- سلسلة شرفات (27)- مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء- المغرب- الطبعة الأولى 2010م. (تأليف جماعي).

أثر الكوارث الطبيعية في المجال الاقتصادي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط. الرياض- السعودية- الطبعة الأولى 2013م.

له إسهامات علمية في ندوات وطنية ودولية.

له مقالات منشورة في دوريات ذات صبغة وطنية ودولية.

يسبر هذا الكتاب أغوار التفاعل بين المؤثرات المناخية والواقع التاريخي والمعيشي لشرائح مجتمع المغرب والأندلس إبان الحقبة الوسيطية. مع ما يصاحب ذلك التفاعل من إفرازات ذهنية وسلوكية عبر عنها إنسان المجال المدروس تحت تأثير الاضطرابات الجوية بشكل خاص. وقد نوع الباحث في مصادره لتجنب إشكالية التعتيم المتمثل في تعمد طمس أخبار الظواهر المنافية لقيم الدين كجزء من أساليب الوقاية والممانعة التربوية حفاظاً على سلامة العقيدة.